٩٨٤٤٤

ســكترما

محمد سامي البوهي

سكترما / رواية

محمد سامي البوهي

الطبعة الأولى ، ٢٠١١

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : **dar_oktob@gawab.com**

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إسلام جاويش

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٨٥٥

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٧٧- ٣

ســـكتـــرما

محمد سامي البوهي

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع



الإهداء

إليهم جميعاً...إلينا جميعاً..

إلى حنين و ياسين..



"هم لا يقرأون لذلك فنحن نكتب بحرية"



تنويه

جميع الأسماء الحقيقية الواردة بتلك الرواية تم أخذ الإذن المسبق من أصحابها بالموافقة على إدراجها ضمن أحداث وشخصيات الرواية، أما باقي الشخصيات فهي من وحي الخيال، ولا تنتمي إلى عالم الواقع.

القســـم الأول

-١-

كان يجب ألا أصدقها...

استيقظت على صوت سحّاب حقيبتها محاولاً استيعاب ملامح المكان الغريب الذي سقطت فيه دون أن أدري؛ السقف، الجدران، الستائر، الدولاب، والتابلوهات، فانتفضت مفزوعاً متحسساً جسدي العاري المكمور تحت الغطاء، تفوح منه رائحة نفاذة ممتزجة بالعرق، وكأنها بقايا أنفاس حمى صيفية، رفعت رأسي من فوق الوسادة، فرأيتها تفرد ابتسامتها المثيرة على شفتيها، فأيقنت أني وقعت في هذا الذنب العظيم الذي كنت أخشاه كلما سمحت لي بالاقتراب منها، لقد منحتها بفعلتي هذه انتقاماً انتظرته طويلاً، فتوجت به انتصارها، مخلفة وراءها ذنوبي التي لا تغتفر، أتمت إغلاق حقيبة ملابسها، ثم ألقت إليّ بجواز سفرها المصري (مظنش إني هحتاجه بعد النهارده) قالتها بلهجة ساخرة، فقبضت عليه بكلتي يدي غير مصدق ما يحدث، لكنها لم تنتظر حتى أفيق من صدمتي تلك، فدست جواز سفرها الانجليزي في حقيبة يدها، وأشارت لي بأطراف أصابعها (باي باي يوسف).. رحلت عني وتركتني في فراشها عارياً إلى الأبد.. أتخبط بين هواجسي، وأشباحي، وشياطيني، أحمل على ظهري أطناناً من عذاب، وأجر خلفي جبالاً من ألم، فكان لابد وأن أعود إلى هناك لأبحث عن أوراق الأشجار

التي سأداري بها سوأتي، ووجهي، وعظامي .. وأعبر الجسر إلى الجانب الآخر لأتطهر بذكرياتي، وأبحث عنهم جميعاً تحت ركام التراب..

: لم يكن الطريق طويلاً إلى هذا الحد الذي جعلني أستغرق في المشي قرابة الساعتين لأصل إلى البيت القديم، لم أعبأ بالحر القائظ، ولابموجات الغبار المتكاثف الذي تركله الإطارات المتهالكة لعربات الكارو، فربما كنت أهيب الوصول لفتح الباب المغلق منذ أكثر من عشرين عاماً، حينما أقام أبي عزاء عمتي أحلام ثم عدنا في الليلة الثالثة إلى القاهرة تحت وطأة المطر، لم يحتمل الصبر نهاراً واحداً خوفاً من سقوط الذكريات التي قد توقظه من وهمه العميق الذي ألقانا فيه جميعاً دون أن يدري، لذلك كان لابد أن أطاوع نفسي وأركض برجلي إلى هنا لأطالع الجدران التي حملتني حتى شاخت، وأهدم الأبراج الضاربة في عوالم النسيان، لأصحو من غفوتي على رائحة عشقتها، فعبرت معي المسافات البعيدة تلتهم الأرض وتنعجن بأنفاسي، حتى تأرجحت معها في اتجاه واحد فقط، ناحية الجذور الغائرة في دمائي، فحتماً كنت سأعود يوماً إلى هنا، راهنت طموحي كثيراً على ذلك وها أنا أقف أمام طاولة الرهان لأكف عن الدوران عند زاوية الحظ، لأغيظ كل أرقام النحس المهشمة..

أقسم أبي أنه لن يعود إلى هنا أبداً بعد رسوبه في انتخابات مجلس الشعب، فقد كان الفارق مخزياً بينه وبين منافسه المخضرم عز الدين

محمود الذي خطف منه الكرسي قبل أن ترتد إليه حلاوة الفوز التي ذاقها لسنوات طوال، فسكب حلمه تحت أقدام أهالي الدائرة ورحل بعد أن ألقى عليهم خطبة طويلة أنهاها بالبكاء، لم أره أبداً يبكي من قبل إلا في تلك الليلة، و يوم موت جدتي فاطمة، فراح يردد بأنه لن يقدم خدمة واحدة لأي فرد من أفراد الدائرة حتى لو كانت ملقاة تحت قدميه، رحل أبي إلى الأبد و لم يعد إلا مضطراً لتلقى العزاء في أصغر إخوته أحلام، و لم يبرح المنزل أبداً خلال تلك الأيام، بل ظل ما بين غرفته والسرادق المقام بالباحة الترابية أمام المنزل، يجلس جوار الباب صامتاً مطأطئ الرأس بعد أن يمتلئ السرادق عن آخره بالمعزين، ثم ينسحب سريعاً قبل أن ينهي المقرئ تلاوته حرصاً منه على ألا يصافح أحداً منهم، وهذا ما دفعه لشراء مدفن كبير بمقابر البساتين بالقاهرة كي يعزل نفسه تماماً عنهم حتى في الموت...

نظرت للبيوت المصطفة على جانبي الطريق الترابي الطويل، وتذكرت المقولة التي كانت تتردد آنذاك -كله من خير العراق- سحبت نفساً عميقاً ونظرت للسماء، لكن الغبار تسلل إلى حلقي فشعرت بجفاف شديد، ازدردت ريقي بصعوبة، وتوقفت للحظات لأستوعب نظرات الناس من حولي، هي ذاتها تلك النظرات التي ينالها كل غريب عابر بينهم، رفعت النظارة الشمسية على جبهتي وابتسمت لطفل وقف بموازاتي يتأملني بوجهه الأسمر، وشعره المجعد الملتصق بفروة رأسه، فخلع نعليه سريعاً، ودسهما تحت إبطه الأيمن،

ورفع طرف جلبابه القصير، ثم طار متروياً بأحد الشوارع الجانبية، شعرت بحرج كمن في نفسي لردة فعله المفاجئة لكني تداركت الموقف بابتسامة أخرى، وواصلت سيري ناحية البيت، كل شيء من حولي كما هو لم يتغير- أو ربما أردته هكذا-؛ عربات الكارو المتهالكة، الطريق الترابي الطويل، وجوه الناس ، وتلك الرائحة التي تجمع خليطاً من عبق المزارع، والمصارف، والطين، والغبار، وروث الحيوانات، فكان التغيير الوحيد الذي طرأ على المكان هو أنا..

اعتادت جدتي فاطمة على حملي خلف نافذة غرفة نومها، لتلهيني عن بكائي المتواصل، بسبب غياب أمي خارج المترل، فأتشبث بالقضبان الحديدية، وأقف على رؤوس أصابعي، وهي تشير بيدها ناحية بيت أبيها المتهدم ثم تربت على صدري، قائلة:(بص بص ده بيت جدك الكبير،كان من أعيان البلد، بيته جميل مش كده؟) بالطبع كنت لا أفهم ما تقصده، فأنظر لأطلال البيت القديم وأصمت قليلا، ثم أعاود البكاء ،تربت على صدري مرة أخرى وباللهجة ذاتها تحدثني (شايف يا واد يا يوسف بيت ابويا حلو ازاي؟؟) أرفع رأسي للسماء منشغلاً بالسحاب، أسلي نفسي قليلا بالأشكال المتداخلة، وسرعان ما أتذكر أمي فأعاود البكاء (يا ابني بطل زن الله يهديك).. بنت الأعيان هي فاطمة، فأبوها السيد موسى من كبار تجار القطن في الناحية، فتح الله عليه وأعطاه، فتزوج من ابنة عمه رباب (أمي الشبان كانوا بيتهبلوا عليها، شعرها

كان إيه؟؟ جدايل دهب، ولا عنيها ..الله يرحمك يا امه) تتوقف جدتي عن سرد حكايتها بتلك الكلمات، ثم تعود تحكي للصغير وكأنها تحدث نفسها، اشترى أبوها بستاناً كبيراً، وبنى في وسطه منزلاً ضخماً، لم يتبق منه إلا تلك الأطلال، أنجب ولداً واحداً، وثلاث بنات فاطمة هي أوسطهن، لكن قبل مماته كتب كل ما يمتلكه لابنه كمال، بعد أن تزوجت البنات الثلاث، حتى أنه لم يهتم بكينونة أزواجهن أبداً، غنيا كان أم فقيراً، شريفاً أم صعلوكاً، من عائلة أم مقطوع من شجرة (أهو راجل والسلام-الله يرحمك يا ابا)، تمصمص شفتيها ثم تنظر إليّ وكأنها تريد أن تشركني الحوار، تتوقف قليلاً شاردة، ثم تعيد خصلات شعرها تحت (الإيشارب) الأسود (كل الناس بتقول إني شبه أمي) تتحسر وهي تتحسس وجهها في زجاج النافذة، ثم تبدأ في هندمة جلبابها الفضفاض المحلى بشريط عريض من الكلفة البيضاء أسفله، بينما تلمع سيور السيرما المشغولة بإتقان على صدرها بشكل منتظم يتناسب مع الزهور الصغيرة الحمراء المدقوقة على كامل الجلباب، تنعكس في النهاية على عينيها الزرقاوين، فتنظر إلى وجهها الخمري الضارب للحمرة، كأنك ترى بحراً عتيقاً سقطت فيه سبائك الشفق .. تقرص وجنتيها بعد أن تطمئن لهندامها، ثم تتدارك الأمر سريعاً (بلا خيبه كبرنا واحنا لسه صغار) تنتبه لوجودي، فتبتسم وهي تصفعني على كف يدي مداعبة (أمك اتأخرت ليه يا واد يا يوسف؟!)، أسمع كلمة أمي فأنفجر باكياً.. تربت على صدري (يوووه رجعنا للزن تاني؟)..

حرص السيد موسى أن يعلم ابنه كمال حتى تخـرج في كليـة التجارة من جامعة فؤاد، اشترى له شقة كبيرة بالقاهرة، ثم زوجـه لإكرام ابنة صديقه الحاج عبد الله مؤمن من كبار تجـار الحبـوب بالمنصورة، وانقطعت أخبار كمال بعد موت أبيـه نهائيـاً، وبعـد سنوات عاد.. فباع أرض أبيه كلها، وقسم جزءاً من البستان علـى أخواته الثلاث، وأبقى البيت والجزء المتبقي لنفسه، ثم رحل..

باع أزواج الأخوات الثلاث بيوقم، وبنوا بيوتاً جديـدة علـى أرض البستان سكنوا فيها، وسكن معهـم ماضـي الأب الـذي استنكرت فاطمة عليه أفعاله المتناقضة (الله يسامحك يا ابـا، قلبـك كان أبيض، وحنين، بس مش عارفة ليه ظلمتنا كده ؟) فتستمر في سرد حكايتها على الصغير خلف شباك غرفة نومهـا؛ ذات يـوم أصبحت البلد على عربات (الكارو) المحملة بـالطوب والأسمنـت والرمل والحديد والحصى، اشتراها السيد موسى على نفقته الخاصة ليقيم جسراً خرسانياً على (ترعة الحصار) الـتي تفلـق البلـد إلى نصفين، ليسهل على الناس مشقة العبـور إلى الجانـب الآخـر، والعكس، لكن ماحدث باليوم التالي أثار غضبه، وغـضب أهـالي البلدة كلها، عندما أمر العمدة حسين بسيوني شيخ الخفر بإلقاء كل ما أحضره السيد موسى من طوب، ورمـل، وأسمنـت، وحديـد وحصى في قاع الترعة (مفيش حجر ينحط على حجر في البلد دي إلا بأمري، هي ساية ولاّ ساية يا بلد؟!) لكن بعدها بشهر ونصف

تقريباً، بنى العمدة ذاته جسراً آخر على نفقته الخاصة، والـــذي زاد من غرابة الأمر أن الأهالي في المقابل أطلقوا على الجـــسر(كـــوبري السيد موسى) على اعتبار أنه هو الأسبق للخير، وهو صاحب الحق في ذلك، ورغم محاولات العمدة المستميتة لإقصاء هذا اللقب عـــن الجسر، واستبدال (كوبري العمدة) به لكنه فشل في ذلك، وظـــل الجسر يحمل اسم السيد موسى حتى الآن ...على الجـــسر توقفـــت ونظرت للماء الجاري بالترعة، حدقت في وجهي المـــنعكس علـــى صفحته الخضراء بفعل الطحالب، وأشجار الكافور المتقاطعة، فرأيته كما كنت أراه هنا من قبل، بتقاسيمه الصغيرة، ووهجه الـــبريء، بالرغم أنني لم أتوقع للحظة واحدة أن ألتقي به مرة أخرى خـــلال أيامي الباقية، اعتدت أن أهرب منه إن حاول الاقتراب كي أســـاير غيبوبة الحياة الجديدة؛ رفعت رأسي لأعلى خوفاً أن يسقط مـــني، فيطفو وجعي، وتتناثر أنا على أنا، لذلك التقطت حجراً من الأرض وألقيته سريعا بالماء، كي أهشم الخيالات العائمة فـــوق روحـــي، وأستعيد توازني المفقود، فذهبت مع السيل عند آخر حدود الرؤية، حتى ظننت في بادئ الأمر أنه السراب، لكن حدثتني نفسي أن أعي جيداً أنني مازلت أقف فوق الماء، فأيقنت أنها الحقيقة التي جئـــت أبحث عنها، حيث لا مكان لسراب، ولا سُـــكنى لـــوهم بمعاقـــل الذكريات ..

اعتاد جدي لأمي أن يجمعنا كل يوم بعد صلاة العصر، يجلس متقرفصاً في أريكته الوثيرة، مرتدياً جلبابه الأبيض، وطاقيته الستان البيضاء، فيمشط لحيته الرمادية بأطراف أصابعه، وينظر إلينا نظرة طويلة قبل أن يغمض عينيه عنا، ثم يبدأ في القراءة بصوته الرخيم، (قولوا ورايا يا ولاد) نربع أرجلنا و أيدينا ثم نردد خلفه بصوت متواتر ونحن نتمايل بأجسادنا الصغيرة للأمام والخلف :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {١} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً {٢} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ {٣} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ {٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ {٥}"

(صدق الله العظيم/سورة البينة)

فحفظت أماني ابنة عمتي أحلام ثلاثة أجزاء، وحفظ شهاب ابن خالتي ليلى ثلاثة أجزاء، وحفظت سحر ابنة الجيران جزأين، وحفظ أخي وليد القرآن كاملاً، إلا أنا ظللت منشغلاً بتلك السجادة المخملية الحمراء التي أحضرها جدي معه من إحدى سفراته إلى العراق، وعلقها على الجدار من خلفه، أتأمل الحفلة العربية المطبوعة عليها، حيث يجلس رجل سمين متكئاً على وسائد متناثرة من حوله،

و يعلق مسبحة طويلة بيده اليمنى، ويتحسس باليسرى ظهر طاووس يتبختر جوار كتفه، على جانبيه يقف غلامان شبه عاريان يمسكان بمروحتين من ريش النعام، يلوحان بهما من فوق رأسه، وعلى الجانب الأيمن من اللوحة تسير فتاة بعباءة سوداء تحمل إبريقاً في يدها، وعلى رأسها صينية متخمة بالأقداح النحاسية، وعلى الجانب الآخر يقف رجل يضع على رأسه طرطوراً طويلاً، يضرب دفاً، ويحني ظهره لقرد يرقص، وقد قيدت عنقه بسلسلة حديدية دقيقة، أما بالعمق فثلاث راقصات بملابس الرقص العربية يتمايلن على أنغام زَمار يرتدي جلباباً بأكمام فضفاضة، ويلف حول عنقه شملة صوفية، في حين يجلس آخر يدندن على أوتار القانون، يوازيه رجل آخر يضرب العود يظهر بصورة بعيدة باهتة، وقد وضعت أمامهم طاولة مستديرة يعتليها طبق كبير ذو قاعدة مرتفعة، يمتلئ عن آخره بأصناف الفاكهة المتدلية منه، والموضوعة بإهمال مقصود، تتناغم اللوحة برأسي فأعيش داخلها، وأنسى الدنيا، أتأمل الفتيات العاريات، وأنظر لسحر بطرف عيني، فيحمر وجهها خجلاً عندما تلحظ نظراتي المتخابثة، ثم تبتسم في نفسها، وتضع رأسها بين صفحات المصحف، حتى استيقظت على صوت جدي (يالا يا يوسف.. سمع سورة يس) فجلست أمامه متلجلجاً وهو يحدق في وجهي مذهولاً وقد احمرت عيناه لهول المفاجأة، ابتلعت اللوحة كل ما حفظت، كما ابتلعت فلقة جدي كرامتي أمام سحر، فقد كان كل ما يهمني هو سحر مع كل عصا تسقط على قدمي، لكني

حاولت أن أسترد جزءاً منها بصفع شهاب على وجهه وإلقائه تحت قدميها لأنه من قبض على قدمي بكل قوة أثناء عقابي، وهو يضحك شامتاً عندما تنفلت مني التأوهات، أو رجاء بالرحمة، وبالرغم من ذلك لم أحفظ آية واحدة إلا عندما فطنت جدتي إحساني للعبة، فنزعت السجادة من على الجدار وأخفتها بحقيبة السفر فوق الخزانة القديمة (مش قلت لك يا حاج شرقاوي إن السجادة دي هتطرد الملايكة من البيت؟)..

تنزع سحر غطاء الرأس فور مغادرتها منزل جدي، فيتحرر شعرها الأسود الطويل، ويسقط على كامل ظهرها، يطاوع دفعات الهواء الصيفية العابرة، فينساب على عينيها كلما حاولت إقصاءه على الجانبين، أعدو خلفها محاولاً جذبها، لكنها تطير كالفراشة بفستانها الوردي المنفوش، هاربة إلى منزلها بعد أن يهتز الشارع كله بصراخها المتدلل، وضحكاتها الرنانة، فيعلو صوت أمها من الداخل (فيه أيه يا بت يا سحر؟) فأجري مختبئاً خلف أي جدار يسترني، وأنا أرقبها من بعيد متحسراً على ضياع فرصة الانقضاض عليها، و رغم اكتشاف أخيها الأكبر لمكاني دائماً إلا أنه كان يقف متسمراً أمامي وبنظرة منكسرة ينصرف عني دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان أهلها قد استأجروا شقة بمنزل الحاج عمر زوج سعاد واحدة من بنات السيد موسى الثلاث، بعد أن هاجروا من بورسعيد بعد نكسة٦٧، أنجبوا ولداً وثلاث بنات كانت أصغرهن سحر وهي

الوحيدة التي ولدت هنا، مات أبوها قبل أن تعي، فأخبرتني ذات يوم بأنها لا تعرف ملامحه إلا من خلال صورة بطاقته الشخصية البالية التي تحتفظ بها أمها في خزانة ملابسها. سحر تكبرني بثلاث سنوات لكني كنت الأقرب إليها، بل وصديقها الوحيد تقريباً من بين كل أطفال شارعنا، بعد نفور كل الجيران من أمها بسبب ما أشيع عن سمعتها السيئة، ورغم تحريض جدتي إحسان المستمر لزوج أختها على طردهم من بيته إلا أنه كان يرفض متحججاً (أنا مشفتش منها حاجة وحشة) لذلك كانت الشكوك تدور حوله بأن هناك علاقة خفية بينهما تدفعه للإبقاء عليها، لكن زوجته سعاد كانت تنفي ذلك بشدة، حتى و إن وصل الأمر إلى نصب مشاجرات النوافذ بينها وبين جاراتها بسبب كلمة نقلتها واحدة منهن في حق زوجها بخصوص تلك العلاقة (أنا جوزي عينه مليانة، ويعرف ربنا كويس) ذات ليلة استيقظت البيوت جميعها على صوت سعاد تصرخ وتولول وهي تدق باب أختها إحسان بشدة (شفته خارج من عندها، دي من دور بناته يا ولاد، يا خراب بيتك يا سعاد) ورغم أن عمر أكد بعد ذلك أنه زوجها على سنة الله ورسوله، وأن جدي الحاج شرقاوي قد شهد على زواجهما، هو وأحد أصدقائه، إلا أنه طلقها وطردها هي وبناتها من بيته، بعد أن ألقى لها مبلغاً من المال مقابل إخلاء الشقة، وذلك إكراماً لسعاد وأولاده، فحملت بناتها و رحلت بعد أن أوصد الجميع أبوابهم في وجهها خوفاً من أن تصيبهم لعنتها، ورحلت سحر لكنها لم ترحل عني أبداً، فلم أستطع نسيان أول فتاة

سمحت لي أن أقبلها من شفتيها دون أن أرتجـــف، سمحـــت لي أن أضمها وأتحسس براعم جسدها، سمحت لي أن أمتلئ وأجد نفـــسي وسط دقات قلب أخرى تدب في جسد آخر، فظلت معي خيـــالاً أقابله سراً كلما اشتقت إليها؛ لأقتات منه وأشبع رغباتي..

(٢)

السيارة (الشيفروليه) العتيقة تقف أمام باب مترلنـــا، يكركـــر محركها المترهل، فيتخم الهواء برائحة الكيروسين النيء بينما يـــشخر شكمانها بالدخان المتكاثف، فيعكر صفو الضباب الصباحي، تخرج جدتي إحسان رأسها من الشباك الأمامي، وتنادي أختها (شـــهلي شوية يا فاطمة اتأخرنا قوي) تهبط فاطمة درجات الـــسلم بـــبطء شديد، تفتح باب السيارة بعد عناء، ثم تلقي بنفسها على الكرســـي الخلفي، أقفز جوارها أنا وأخي، في حين نتفاجـــأ بوجـــود أمـــاني وشهاب بالكرسي الأمامي جوار السائق، نـــثير ضـــجة ومـــشادة صبيانية لنجلس بالأمام جوارهما، لكن يقع علينا تهديد جدتي فاطمة يخرسنا، فنكبت تذمرنا في صمت (والله ما اخدكم معايا) تسير بنـــا السيارة ككرة الرمل حتى تصل بنا إلى مدينة طنطا عنـــد الظهـــر، حيث تكون الشمس قد اخترقت السماء وعمرت الأرض، يرتفـــع صوت الأسطى حجازي بعد أن يتوقف أمام مسجد السيد البدوي (حمد لله ع السلامة يا جماعة) يقولها وهو يجفف صلعته الفـــسيحة بمنديله القماشي (الكاروه)، فتردد جدتي إحسان بلهجة أقـــرب إلى النحيب وهي تنظر للمئذنة الشاهقة (شي لله ياسيد يابدوي، اوعدنا بزيارة النبي يا رب) في حين تصرخ فينا جدتي فاطمة بعـــدم فـــتح الأبواب، أو التحرك من السيارة إلا برفقتها ..

بالداخل كانت الأجواء كالشتاء، تسير الـــروح في خـــشوع، وتتعانق القلوب بالجلال، بهرني المقام فعشت الفضول المتراكم على الأسئلة داخلي، حتى ظننت أن الله يسكن ها هنا، أنظـــر لجـــدتي إحسان التي تحشر رأسها بين الفتحات النحاسية، فأراهـــا تغمـــض عينيها وتبكي متوسلة، فيزداد تمردي، أحـــدق في كتلـــة القمـــاش الخضراء من بين الفتحات، وأعيد تلك الأسئلة، فتترنم روحي بـــين الشك واليقين، وترتعش أفكاري الصغيرة، كيف يصغي لنا الموتى، ويستجيبون الدعاء؟! -الموتى لا يسمعون- وقفت مستسلماً وأنـــا أطالع الأضواء والزخارف المرسومة على الـــسقف المقعـــر (انـــت بتعيطي ليه يا ستي؟) فلا تعبأ بسؤالي، وتواصل ممارسة التمتمة مـــن بين الفتحات النحاسية اللامعة، تخرج منديلاً من حقيبتها تمسح بـــه المقام، ثم تمرره على رأسي (ربنا يبارك فيك يايوسف يا ابن إبراهيم، ويهديك) فأضع يدي فوق رأسي، وأعيد النظر للكتلـــة القماشـــية الخضراء داخل القفص النحاسي منتظراً حلول البركة ..

تتعالى ضحكاتي، فأنادي شهاب ليشاركني متعة التفـــرج علـــى امرأة سمراء تضع (بؤجة) كبيرة فوق رأســـها، وترتـــدي جلبابـــاً فضفاضاً من القطيفة الخضراء، تعصب رأسها (بإيشارب باتيـــستا) طبعت عليه زهور ضخمة من كل لون، يتدلى من أسفله قرط كبير من قشرة الذهب، نسير خلفها ونكتم الضحكات خوفاً من أن ترانا جدتي فاطمة :

شي لله يا سيد يا بدوي

بركاتك يا شيخ العرب

مدد يا سيدنا مدد

تردد تلك المقاطع وتجر بذيلها طفلاً ناعساً، مقفل العينين، يرتدي جلباباً قصيراً ويلوك بفمه كسرة خبز اجتمع عليها ذباب الناحية كلها (جيالك من بعيد قوي يا سيد) هكذا كنا نقلدها ساخرين، كلما رددت تلك الكلمات، فتتوقف عن طواف المقام، وتلتفت إلينا (بس يا ابني انت وهو ربنا يهديكم) لكن يبدو أن مفعول المنديل المبارك لم يعمل بعد، فتزيد، ونزيد من مضايقتنا لها (بس يا ابني انتم ملكوش أهل يلموكم) استفز كلامها شهاب، فركل الولد ركلة قوية طرحته أرضاً، ثم فر هارباً وسط الزحام، نظرت إليّ نظرة طويلة أتت من بين حسرة وأسى، وانهمرت دموعها مع صراخ صغيرها كأنها لم تبك أبداً من قبل (يا قلبي يا ابني .. اسم الله عليك، روح منك لله، يخلص منك ربنا) فوقفت مشلولاً لا أنطق بكلمة واحدة، بينما عادت للطواف حول المقام وهي تردد تلك الكلمات باكية..

أمام المسجد نجلس بالساحة الرخامية نفترش الأرض بالطعام الذي أتى به الأسطى حجازي لنتناول وجبة غداء سريعة، تتداخل رائحة أقراص (الطعمية) الساخنة، مع رائحة أطباق الفول وأرغفة الخبز الأسمر والجرجير فيفوح عبق نألفه ونشتاق إليه مهما عمر

أنوفنا، تطمئن جدتي فاطمة (مبسوطين يـــا ولاد؟) فتـــرد أمـــاني وحدها(قوي قوي يا ستي) ننشغل نحن بالتقـــام الطعـــام دون رد. ينهض الأسطى حجازي من حلقة الطعام، ينفض يديه، ويمسح فمه بمنديله العجيب، يدخن سيجارة علـــى عجـــل ثم يتجـــه ناحيـــة (الأتومبيل)، ويستلقي على الكرسي الخلفي كي يتمكن من مواصلة الرحلة بلا تعب .. أنظر للناس من حولي فأنجذب لتلك الحكايات العالقة بملابسهم، وحقائبهم المهلهلة، وقسمات وجوههم، فأشـــعر أنني يوما ما سأكون بطلاً أو زعيماً، أو رئيساً للجمهورية أغير من حياقم، وأمنحهم الجواهر، فتصعد أنفاسي وتنخفض، ويدق قلـــبي لمستقبل مجهول جاء يطلب البركة من ضريح ربما يكـــون صـــاحبه مدفوناً في أرض أخرى تبعد أميالاً وأميالاً عن هنا، لكننا نـــصر أن نسترزق من أوهام مقدسة يُسحق كل من يتمرد عليهـــا، ويعـــيش حياته ملعوناً. طويت شطحاتي سريعاً، وشاركت أخي جمع بقايـــا الطعام لإلقائها بإحدى الأركان المتروية، لكن يبدو أن هنـــاك مـــن يرقبنا من بعيد لاقتناص تلك البقايا ...

مولاي

إني ببابك قد بسطت يدي

من لي ألوذ به إلاك يا سندي

مولاي ..يا مولاي

يزداد تصاعد بخور المريدين في حضرة الأذان، نسجد مع الجدتين لصلاة العصر، يقشعر بدني وتدنو روحي من الله، و أعيش بين الأنبياء والرسل، فأكاد أصعد هذا المنبر وأخطب في الناس بالتقوى، حتى وإن لم أكن نبياً، أو قديساً، أو عبداً مطيعاً، لكنه قلبي الذي اختار أن يقترب، ويقترب من النور ليرى، فكنت لا أعي مشاعري، وأكبت دموعي، وأحلق إلى جوار الملائكة، فأشهد أنك أنت الله، وأن محمداً عبدك ورسولك ...

أسند أخي ظهره لأحد الأعمدة الاسطوانية الضخمة، وراح يرتل القرآن بصوته الطفولي –لا أعلم لَم فعل ذلك؟– فجأة انقلب الحال إلى موقف هزلي عندما اقتربت منه إحدى السيدات، وألقت في حجره جنيهاً كاملاً وهي تردد قائلة (الله يفتح عليك يا ابني، ادعيلنا..) لكن قبل أن يستوعب أخي ما حدث، كنت قد أعلنت للدنيا كلها (وليد أخويا بيشحت يا ستي) فنزعت جدتي فاطمة الجنيه من يده، ونادت على السيدة الأنيقة التي قد منحته إياه، ثم ردته إليها بجفاء (احنا مش شحاتين يا اختي.. كتر خيرك) فحدقت في وجهها مستغربة دون أن تنبس بنبت شفة...

يرتفع تل الحمص ويرتفع كلما رش عليه الحلواني المزيد، أرقب حركته السريعة، ومهارته في لف علب الحلوى بالورق الملون، فأنبهر وتحملني رائحة الفانليا وجوز الهند، والأبخرة الطازجة إلى عالم آخر، يزوغ بصري بين أصناف الحلوى البيضاء والحمراء، والصفراء

والبرتقالية فيرقص بخيالي قوس قزح، كانت تغريني، تجذبني، تأخذني فأحلق بخيالاتي إلى الجنة، تطلب جدتي إحسان عشرين علبة من حلوى البركة، ثم تطلب تشكيلة من المزامير، والدفوف، والطبول، والمصاحف الصغيرة (يالاّ خلي العيال تفرح يا فاطمة) فنعود للشجار، شهاب يريد دفاً كبيراً، وأماني تريد عروساً من الحلوى الحمراء، ووليد يريد مزماراً طويلاً، أما أنا فأردت كل شيء..

باليوم التالي كان خالي يصرخ فينا غاضباً، كلما نفخنا في المزامير، وضربنا الدفوف أثناء خروج جنازة جدتي إحسان، وسط عويل النساء ..

ماتت جدتي إحسان وتركت داخلي هذا الطفل الذي لم يغادرني لحظة واحدة، بل اتخذ لنفسه ركناً قصياً في جسدي، تقرفص فيه ومارس شهوة البكاء والضحك، والحلم الطويل، فانعكست ظلاله على قلبي، وعقلي، وكبدي، وشراييني، فمهما تحيرت الخلايا داخلي وانتفخت، بقى هو كما هو لا يتغير، طفل أرجحته الطموحات، وهدهدته الأرض فعاش ألف لحظة في لحظة واحدة، رأى فيها كل البشر بوجوههم المغبرة ببرادة الذهب، وبهرجة الحياة، لكنه لم ينخدع أبداً ببريق جاء يخرج لسانه اللامع في وجهه، فلم يلتفت إليه ومضى في طريقه ..

اطمأنت أمي لهندامي، بعدما تأكدت من عقد وثاق رابطة عنقي ثم عادت تمشط شعري للمرة الثالثة، وهي ترش على ملابسي عطر

الليمون (كبرت خلاص يا يوسف ورحت المدرسة؟) تمتمت بتلك الكلمات بعين رقراقة بعد أن استقرت بقبلة على خدي الأيمن، تنفست منها روحاً أخرى سكنت داخلي، فنفضت أجنحتي الصغيرة وبدأت أرتمي فوق وسائد الريح، كان مصطفى في انتظاري ليحمل عني الحقيبة حسب تعليمات جدتي إحسان التي وقفت أمام باب منزلها تنتظر خروجي، وعندما خرجت انطلقت الزغاريد كأني سأزف إلى سحر الليلة (ربنا يحرسك من العين، ويبارك فيك يا يوسف يا ابن بنتي) وضعت يدها على رأسي وأخذت ترتل المعوذتين، ثم أخرجت كيساً ضخماً من (الملبس) وناولته لمصطفى الذي كانت تستدعيه لقضاء حوائج البيت كلما لزم الأمر، فدسه في الصديري الذي يرتديه تحت جلبابه الرمادي، ثم حمل حقيبتي وانطلق الموكب الحافل وسط دعوات الجدة، كان يحدثني طوال الطريق بلهجته الصعيدية (عايزك تبجى شاطر بالمدرسة مش زي حالاتي يا ويلد، مكنتش بعرف الألف من كوز الدرة) ثم يبتسم فتبتسم معه الصباحات السمراء، عندما وصلنا إلى فناء المدرسة، أخرج مصطفى كيس (الملبس) من جلبابه، وراح يفرغه فوق رأسي فتسارع الأطفال يلتقطونه من تحت أقدامي، وقفت مزهواً، رافعاً رأسي، وأنا أشاهدهم بطرف عيني في ثبات، رغم خفقان قلبي، وارتجاف جسدي، إلا أنني كنت أنتشي لواقع أبي ألا أدخله كزائر عادي .. ارتفعت ضحكاتي عندما خطف الأطفال ما تبقى بالكيس من يد مصطفى (جيب الكيس يا ولد الفرطوس منك له)، لكن كانت

أفواههم قد امتلأت عن آخرها بحبات (الملبس) وظل هو يتحسر على ضياع نصيبه ..

اليوم ماتت جدتي إحسان وودعناها بالمزامير والدفوف، كما استقبلتنا هي بالزغاريد ..

(الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يرتل القرآن)

عبرت الجسر ...

وعبرت معي الذكريات المثقلة بالحنين، فالذكريات كالذنوب إذا صعدت للسماء يتطهر الجسد، ويلف حوله شرنقة بيضاء يحيا فيها بروح جديدة، يجمع منها ذكريات أخرى ثم يفرغها في قلب أراد أن ينبض يوماً في الماضي، ولو للحظات معدودة.. اقتربت من (الجميزة) العتيقة ورحت أبحث عن بقايا أحرف كنت قد حفرتها هنا، فتهت بين علامات كُثر حفرها أجيال أخرى أرادت الخلود دون أن تلتفت لماضي جيل ذهب كما تذهب الشمس، لكنه لن يفعل فعلتها ويعود من الجانب الآخر، بل يموت مشنوقاً على شعاع مقطوع، لا هو وصل للأرض، ولا هو ارتد للسماء فظل يرتعد على رقابنا ينعي حظه.. هنا كنت أستلقي على ظهري مستظلاً بالأوراق الخضراء، أختلس النظر من قناديل النور الساكنة بينها، وأدشن كلماتي الجديدة التي لم يطلع عليها أنس ولا جان، وأشرع في كتابة قصائد الحياة الأخرى.. هنا كنت أجلس أنا وأخي وشهاب، وأحياناً سحر، نسند ظهورنا لعروقها الممتدة، ونحصي أمانينا، نحشو

بها رأس الدنيا التي تتململ من أفعالنا، لكننا لا نتوقف، بل نستلذ، ونستمتع بالسباحة في السماء (أنا عايز أطلع دكتور، وأنا عايز أطلع ظابط، وأنا عايز أطلع رئيس الجمهورية، لا..لا أنا عايز يكون عندي فلوس كتير قوي) ندعك بأيدينا التراب، ونسرد الأمنيات لأشباح لا يراها غيرنا، لأننا حتما سنمر من هنا يوماً ما، نطمئن عليها ونسبقها قبل أن تسبقنا، ونمسك بها قبل أن تموت على خط النهاية ونخرج نحن صفر اليدين، يتراكم ويتراكم على ظهورنا حتى نبني منه سداً من هواء ..

وقع بصري على امرأة تداري أطراف وجهها بطرحة سوداء، وترقبني في صمت، حدقت في وجهها طويلاً ورحت أبحث عن ملامحها، لكنها كانت لا تسمح لنظري باختراق تلك المسافة التي تفرق بيني وبينها، وقفت مندهشاً، فبدأت تقترب نحوي وهي تسحب قدماً خلف قدم،حتى تداخل وجهها مع الظل، وعندما أصبحت المسافة بيننا أقل من ذراع، أفلتت أطراف طرحتها من يدها، لكني قبل أن أتحقق من ملامحها، كانت أصابعها المرتعشة قد لامست تقاسيم وجهي، تسمرت في مكاني مستسلما فاغراً فاهي دون أدنى مقاومة، فعلقت بصرها ببصري ثم قالت بحنان (أنت رجعت يا حمدي يا ابني؟) أفقت من صدمتي وأنا أسحب وجهي من بين أصابعها (أنا مش حمدي يا حاجة) وفجأة وقبل أن أكمل كلامي، تفاجأت بفتاة تركض نحونا مندفعة، قالت لاهثة وهي تثبت

(الإيشارب النبيق) فوق رأسها بيد، وتسحب العجوز من ذراعهـــا بيدها الأخرى (لا مؤاخذة يا أستاذ، من ساعة ما جالنا الخبر وهـــي كل ما تشوف حد غريب تفكره حمدي اخويا) فسألتها مندفعاً :

هو مات؟

فردت وهي تتراجع للخلف:

(أخده البحر أول عمنول مع الجدعان إلي كانوا هـــاجين علـــى إيطاليا)

كانت دموعها تتوارى معها، حينما التفت نحو الشجرة العتيقـــة وأخذت أقلب بصري بين الذكريات المحفورة على جذعها المتورم..

-٣-

عاد عز الدين محمود محمولاً على الأعناق، وسط هتافات الرجال والنساء والأطفال، بعد رحلة من العذاب قضاها بين سجون السادات، والعزل السياسي وبراثن المرض، كانت الأنباء قد سبقت عودته بعدما أعلن (الريس) الإفراج عن فلول عبد الناصر، ومنحهم لعبة الاشتراك في الحياة السياسية، فتعلقت آمال الناس ببذرة ستصعد مرة أخرى من تلك الأرض، فقرروا نسيان كل شيء مضى وراحوا يسجلون أحلامهم على أوراق الورد، ليقدموها للفارس المنتظر الذي سيحملها عنهم ويمتطي ظهر حصانه الأبيض، ويعبر بها البحار، والأنهار، ويصارع من أجلهم السباع، ويقطع الصحاري والوديان، ويصعد الجبال ويلقي بنفسه في النار، ثم يعود إليهم محملاً باللآلئ والياقوت، والذهب .. كان الرجل يلوح لنا بكلتا يديه من فوق السيارة (ربع نقل) التي طافت به طرقات البلدة وسط تدافع الناس من كل صوب، من الشوارع، من البيوت، من فوق الأسطح، وأعمدة الإنارة، من البلاد المجاورة، ومن تحت الأرض، نصفق خلف الطبل البلدي، ونردد وراء من يهتف بحماسة (الصحافة فين؟ عز الدين اهو)، لم أر يوماً كهذا اليوم الذي اجتمعت فيه البلدة كلها على فرحة واحدة، وصوت واحد، ولغة واحدة، فأنظر لقطع الحلوى، والنقود المعدنية التي تسقط فوق رؤوسنا، وأحايل ظني بأن السماء ستمطرنا ذهباً وفضة. تقع عيني في عينيه فتسكنني الرهبة،

وأعيش لحظات يكاد يتوقف فيها قلبي عن الخفقان، ويزداد تـدفق العرق من جسدي كله، لكنه في النهاية لا يرى هذا المخلوق الصغير الذي جاء يتعلق بالفرح..

على المقهى جلس أبي يتشاور مع الكبار، فريق يؤيـد تجديـد ترشحه لمجلس الشعب، وفريق آخر يثنيه عن الفكرة ويؤيد ترشـيح عز الدين محمود (الراجل كان وزير، وعضو في اللجنـة التنفيذيـة العليا أيام عبد الناصر؛ يعني تاريخ) ودار الجدل بين الفريقين، وارتفع الصوت، واحتدت المناقشة حتى تحولت إلى مشاجرة كبيرة، طاحت فيها أكواب الشاي، والكراسي، فخرج أبي يحملني بعيـداً وهـو يضرب كفاً بكف، كان الأهالي قد تجمعوا أمام المقهى علـى إثـر المشاجرة التي حولت المكان إلى فوضى، تناثرت معها الكلمات هنا وهناك (الراجل ده نايبنا من زمان وبيخدم الصغير قبـل الكـبير، ومشفناش منه إلا كل خير) - (عز الدين محمود انظلم كتير وجـه الوقت الي ياخد فيه حقه، أما إبراهيم رشاد ده بتـاع الحكومـة) وانتقل مسرح الشجار إلى الشارع، فانقسمت العائلات، خاصـم الأب ابنه، والزوجة زوجها، والصديق صديقه، ودخلت البلدة دائرة صراع غريب طالت كل بيت، خصوصاً بعد إعلان عز الدين محمود ترشحه رسمياً ،كنت أسترق السمع من كل غرفة بمترلنـا وأجمـع الكلمات من أفواه أنصار أبي التي اختلفـت وجـوههم كأطبـاق الطعام، وأكواب الشاي المنتشرة بكل ركن مع أعقاب السـجائر

الميتة، فأركب بعضها فوق بعض كالمكعبات، وأصنع منها بيوتاً من خيال (انتخابات، مأمور، مركز، لجان، تقفيل، تزوير، صـناديق، أصوات، حزب وطني، هلال، بلطجية، سلاح).. علقت (السـيفط) القماشية بكل مكان تحمل الشعارات، والكلمات النارية (انتخبـوا مانديلا العرب عز الدين محمود رمز السيارة) — (خـش وعلـم ع الهلال وبإيدك سلم ع الهلال)، حتى جدران المنازل لم تـسلم مـن الملصقات الورقية التي تحمل صورة أبي، من ناحية، وعز الدين وعبد الناصر من ناحية أخرى، والأكليشيهات الجاهزة التي خلفت وراءها صوراً باهتة للشعارات والرموز الانتخابية، وانطلقـت المـسيرات المؤيدة لكلا الطرفين، وأقيمت السرادقات، والمجالس، والمـؤتمرات، ذبحت الذبائح وعقدت الولائم، وعلت الميكروفونات هنا وهنـاك، وحلقت الوعود، والكلمات الخلابة، وتضخمت الـشائعات (عـز الدين محمود هيحول البلد لمدينة)- (إبراهيم رشاد هيقلب الوحدة الصحية لمستشفى مركزي تخدم الناحية كلها) لكن يبدو أن النفس البشرية تميل دائماً للقادم الجديد، ويا حبذا لو كان يحمل لهم قـديماً مبهراً، فعاد إليهم عز الدين بخطب عبد الناصر، وأغاني الزمن الجميل التي دارت بها الميكروفونات بالشوارع، والطرقات الضيقة، ورغـم كل المحاولات، والتجاوزات التي مارستها الحكومة لإنجاح أبي مـن تفريق الناخبين،وإطلاق الرصاص، والقذائف المسيلة للدموع فـوق رؤوسهم، فأصابت العشرات، وقتلت ثلاثة رجال من الأهـالي، إلا

أن عز الدين محمود هو من فاز بكرسي البرلمان باكتساح، هكـــذا انتشر الخبر، فأصبحنا على تلك الحقيقة..

ألقيت بصري على الطريق الممتد، ورأيت دمـــوع أبي فـــذهبت دموعي حيث يقطن الماضي، أنزوي في حجـــره وأتخـــم روحـــي بالأمان، وأعيش النور الذي كنت أراه كبيراً جداً، فأعبر متاهـــاتي دون خوف، لأرى وجهي في النهاية كما هو خالياً من وجه أحمـــق جاء يشوهه، فعشت حياتي كلها بوجه واحد فقط، وصوت واحد فقط، وقلب واحد فقط، وألف عين ترى بنفس الضوء الذي أهداني إياه، لكن كانت أضواء أخرى تقذفني بعيداً عن هنا فـــأرى منـــها خيالات سوداء تغريني بالتمادي في الغرق، حيث أفقـــد أنفاســـي، وأغيب في بئر سحيقة تخدعني بحافة من صدف، لكنه قاع لا يرتـــد بنا إلا بالموت، ولا نجاة إلا بجسد أزهقت منه الروح، فكان يجب أن أعود إلى هنا فربما ترتد إلى روحي ..

كانت تحذرني أمي من الذهاب مع أولاد الجيران إلى الـــبحيرة، لذلك كنت أذهب سراً من دون علمها، أقضي يومي بين القوارب الصغيرة، وأكواخ الصيادين، وأعود بعد أن يقهرني الجوع والعطش، حتى أتى يوم تسللت فيه إلى هناك كما هي العادة، جلست علـــى الشاطئ أتابع (الرافعة) التي تطهر باطن البحيرة من الأشياء العالقـــة، وتطرحها بعيداً،فكانت زجاجات فارغـــة، وأخـــشابا، وأحذيـــة، وحيوانات ميتة، ونباتات،وأسماكا ضالة يقفز خلفهـــا الانتـــهازيون

الصغار ليقبضوا عليها، لكن فجأة رأيتها ترفع شيئاً غريباً، هرع إليه السائق، وترك الصيادون قواربهم، وخرجوا من أكواخهم ملتفين حوله، كانت قطعة معدنية أشبه بحطام سيارة ضخمة، أو آلة فضائية، فترعها السائق بشوكة (الرافعة)من الطين، فظهر الحطام كطائرة فقدت أحد جناحيها، فسرى الخبر سريعا إلى البلدة، التي تدفق أهلها ليشاهدوا حطام الطائرة الإسرائيلية التي أسقطتها طائرتنا بمعركة المنصورة الجوية (*) أثناء حرب أكتوبر ٧٣ هذا ما تأكد بعدما تبرع أحدهم وفسر ذلك، ورغم تآكل كل معالمها إلا أنهم أرادوا أن يصدقوه (الله أكبر..الله أكبر) تعالت التكبيرات وهم يرجمون الحطام بالحجارة، و يضرمون فيه النيران..

بالمساء سألت أبي عن عدد من قتلهم من الإسرائيليين خلال عمليات الإبرار الجوي خلف خطوط العدو، فنظر إليّ نظرة طويلة، وبعين زائغة أجابني (مش عارف) ثم أخذ يسرد لنا الحكاية ذاتها، و لم تكن هي المرة الأولى التي يحكي لنا فيها عن حرب أكتوبر، بل ربما هي المرة العشرون، أو الألف أو المليون، فتقريباً هو يقصها علينا كل يوم، فنصغي إليه في كل مرة رغم أننا حفظناها عن ظهر قلب،

(*)معركة المنصورة الجوية ١٤أكتوبر ١٩٧٣، وتعد أطول معركة جوية في التاريخ، حيث استمرت ٥٥دقيقة وقد حققت القوات الجوية المصرية تفوقاً مبهراً على سلاح الجو الإسرائيلي ومنعته من التوغل في الدلتا وبورسعيد، وأصبح هذا اليوم العيد السنوي للقوات الجوية المصرية

بل رأيناها معه، وعشناها في قلبه الذي يـأبى أن يتخطاهـا، أو ينسى همسها، وصخبها، أو حتى صوت قنابلها، ورصاصها، فظـل يحكي، ويحكي حتى انتهى بنا الليل، لكن حكايـات قلـب أبي لا تنتهي، بل استمرت، وعاشت بيننا..

التحق أبي بالجيش المصري بعد تخرجه من كلية التجـارة عـام ١٩٦٧ في أعقاب هزيمة يونيو، وحالفه الحظ أنه كـان مـن أول الملتحقين بمدرسة الصاعقة بأنشاص، فقص علينا كيف كـان هـو وزملاؤه يتلقون التدريبات القاسية، بل والمميتة في بعض الأحيـان، وذلك من أجل تأهلهم لتدريب الملتحقين بالمدرسة من دفع الجنـود المستجدين، وأخذ يردد على أسماعنا الأسماء الـتي عـاش معهـا، وعاشت معه؛ الشاويش على، وعبد الفتـاح، والـصول عـادل، واسماعيل، والعقيد هاني عبد المسيح (كان بيصوم معانـا رمـضان كله)، والذي حمل اسمه أحد أبناء عمتي سامية، تعبيراً عـن حبـه الشديد له ..

يـا رجالـة....

تلك الكلمة هزني عندما ينطق ها أبي منفعلاً، وهو يشرح لنا بكل حواسه كيف كانت تدور التدريبات، والعمليات الفدائية بحـرب الاستتراف، ثم يتمادى في سرد الحكايات عن زملائه من الـشهداء، الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الوطن، أمثال زميله عبد المتجلـي الذي وضع جسده أمام فوهة مدفع رشاش، كان يطلق عليهم النار

من دشمة حصينة بخط بارليف، ثم وصف لنا حال الجندي الإسرائيلي وقد أصيب بهستريا بسبب ما رآه، قطع أبي حديثه ثم قـــال بغـــيظ (غربلناه).. يسرح بعيداً ثم يهز رأسه متحسراً (والله المفروض الريس يعمل للناس دي تماثيل)، يردد تلك الكلمات ثم يغرق في صـــمته، وكأنه يرتطم بالأرض بعد رحلة تحليق ممتعة ...

بالصباح استيقظت على صرخة قوية أتت من الدور الـــسفلي، بحثت عن أمي بالغرف فلم أجدها، فقـــط وجـــدت أخـــي، وأبي مستغرقين في نومهما، سحبتني الصرخة لأسفل، وقلبي يكاد يفر من صدري – لمن كانت تلك الصرخة ياترى ؟- كان السؤال يبحـــث عن مخرج له فظل يشاكسني وأنا أهبط درجات السلم بحذر شـــديد قابضاً بيدي على سكين كنت قد سحبتها من أحد جوارير المطبخ، يلعب بي الخيال، وتتصارع أمامي كل مشاهد الرعب التي خلقتـــها لنفسي، فأرى منها وحوشاً، وأفاعي، وكائنات غريبة تطـــاردني في نومي، وتشق عليّ الظلام، تركض خلفي كلما حاولـــت الفـــرار، فأصرخ، وأصرخ، وأختنق تماماً، حتى يصفعني النور، وتتلقفني أمـــي بأنفاسها الدافئة (متخفش متخفش النور قاطع) فأظل أرتعـــش في حضنها حتى الصباح.. كنت قد هبطت درجات السلم وتسللت إلى شقة جدي، فرأيت جدتي فاطمة، وأمي تقفان بالصالة أمام إحـــدى الغرف، ورأيت جدي رشاد جالساً على مقعده، يمسك بمـــسبحته، ويتمتم كعادته مغمض العينين (سبحان الله وبحمده.. ســـبحان الله

العظيم) فابتسمت أمي حتى بانت الغمازتان على وجنتيها، وبلهجة مداعبة (انت خفت يا قلبي ؟؟) وقعت عينها على السكين التي بيدي فعلت ضحكاتها (يخرب شيطانك يا يوسف) قالتها وهي تـــسحبها من يدي برفق (دي أماني بنت عمتك أحلام خلاص بقت عروسة) فعلقت جدتي ابتسامتها بوجهي، ومدت يدها تفتح الباب المغلـــق (ادخل قول لها حمد لله ع السلامة) ألقيت بصري بالداخل متـــهيباً القادم، فتفاجأت بما شاهدته،كانت عمتي أحلام تجلس على السرير، تسند ظهر طفلتها إلى صدرها، وامرأة أخرى تقبض بكلتـــا يـــديها على ساقيها الدقيقتين من تحت الغطاء بينما تحاول الصغيرة التملص منهما بصرخات مكتومة، تختلط بصوت الحلي المرتعش في يد المرأة التي تهدئ من روعها (خلاص خلصنا خلاص) فكدت أطرح أرضاً عندما اصطدمت عيني بشفرة طويلة مغموسة في طبق من الـــصاج يمتلئ بسائل أبيض ملوثاً بالدماء، رفعت رأســـي عنـــه مـــشدوهاً وأمعنت نظري في وجه عمتي أحلام، ثم ركضت إلى أعلى مرتعـــشاً وسط ضحكات أمي وجدتي (متخافش، متخافش تعالى ...) مـــاذا كان يفعل هؤلاء بحق الله؟؟ سؤال طرحته على نفسي كثيراً كلمـــا طاردني هذا المشهد في منامي، وأنا أقاوم المرأة التي تحاول نحر عنقي بشفرتها ..كانت الشمس قد بدأت تتزوي عن منتصف السماء، فلم أعبأ بما تبعني من ظلي بل تركته يحجل خلفي، تدهسه حوافر الحمير العائدة إلى الحقول بعد راحة القيلولة، فأشعر بانتشاء عندما أسمـــع أنينه المكتوم، أو عندما يأتيني صوت فرقعة عظامه تحت عجـــلات

(الكارو)، فكان يقاوم ليواصل التصاقه بي بكل قوة مهما حاولت مراوغته، أو الاختباء منه تحت ظل شجرة، أو بيت، أنظر لملامحه الملساء فأراها تشبهني كثيرا، فأركله ككرة جاءت تتدحرج من فوق جبل، أو أدوس على رقبته كحشرة حمقاء أرادت الانتحار، لكني أيقنت أخيراً أنه كالنار إذا شبت في جسد لا تتركه إلا إذا صار رماداً ..

عندما سمحت لي بتقبيلها لأول مرة، كنت قد هممت ببسط شفتي على خدها، لكنها وضعت أطراف أصابعها على فمي، وبلهجة محذرة أوقفتني (واحدة بس يا يوسف!) فما كان مني إلا أن صفعتها على وجهها بغيظ (انت قليلة الأدب يا سحر) رددت تلك الجملة، وأنا أنزع باب غرفتها راكضاً إلى الخارج، لكني لم أكن أعلم بأنها ستسمح لي بعد ذلك بطبع قبلتي على خدها عشرات المرات حتى ظننت أنني الذكر الوحيد بهذا العالم، وإلا كان وقع اختيارها على أخي، أو شهاب ليمارس معها ما تريده، فدفعني ذلك إلى النظر لجسدي بانتشاء أثناء الاستحمام، فكنت أطلب من أمي أن أستحم آلاف المرات باليوم الواحد -أحب نفسي كثيراً- وبما أنني لم أر تفاصيل غيري من قبل، إذاً فتلك التفاصيل التي أراها هي لي وحدي، حتى جاءت اللحظة التي سألت فيها زميلي عبد القادر الذي يشاركني مقعد الدراسة عن سبب ارتدائه جلباباً هذا اليوم ومخالفته الزي المدرسي، فكان يجيب على سؤالي بتبجح (وانت مالك انت؟) لكن فضولي لم يقتنع أبداً، ومع تكرار السؤال، وإصراره على تلك الإجابة، انقضضت عليه، وقبضت على عنقه بذراعي، وطرحته على ظهره، وقيدت يديه للخلف، ثم رفعت عنه الجلباب، لكني تفاجأت بعد أن نزعت لفافة الشاش الملطخة بالدماء والمتهدلة من بين فخذيه أنني لست الذكر الوحيد بهذا العالم،

فأدركت أنه يجب أن أخرج من صندوق سحر لعالم أكثر رحابة، أعدو، وأقفز، بين الأضواء، والأشكال، والألوان، فأرى مائة فتاة أخرى، بل ألف، بل مليون، فأعيش بعيداً عن خرائط الظلام، أصهر قضبان سجنها، وأغزل منها ثوب الرحمة، ثم أغلق الصندوق على أول ذنب اقترفته في حياتي بعد ذنب البكاء..

اشترى أخي حصالة خشبية ليكتر فيها نصف مصروفه اليومي، فأعجب أبي بالفكرة، ووعده بمنحه مبلغا يضاهي ما سوف يدخره حتى نهاية الصيف، لم تعجبني الفكرة أبداً لذلك تربصت به لحرمانه من كتره قبل أن يتضخم ويكبر، ويصبح عملاقاً كبيراً يفرض سطوته علي، وبطريقة احترافية كنت أخلخل المسامير من أحد الأجناب الخشبية للحصالة، وألتقط النقود وأستبدل بها لفافات صغيرة من الورق المبروم، وأغطية البيبسي والكوكاكولا المعدنية، ثم أدفن ما سرقته في حفرة صغيرة كنت قد حفرتها بالبستان خارج المترل، وبعد انقضاء شهور الصيف كانت الحصالة قد انتفخت عن آخرها، فحمل أخي غنيمته وطلب من أبي أن يحضر الجاكوش، ويترع عنها الغطاء، ولم ينس أن يذكره بوعده الذي وعده إياه— أخي لا ينسى شيئاً أبداً– وبحماسة أحضر أبي الجاكوش كما طلب، ووقف الجميع يكتمون الأنفاس في ترقب، لكن ما كشف عنه الغطاء الخشبي جعلهم يطلقون زفرة واحدة كما لو كانوا متفقين على ضبط إيقاعها في نفس اللحظة، وكانت المفاجأة الصادمة، التي

حولت أفواههم إلى أفواه أسماك مجمدة محشوة بـــالثلج، ومـــن ثم أشارت أصابع الاتهام لي دون تردد، ودون إيماءة شك واحدة، بـــل كانوا واثقين تماماً أنه أنا من فعلها (مفيش غير يوسف هو الي عمل كده) ورغم اعترافي السريع، إلا أنني لم أبح أبداً بمكان النقـــود، و لم أرد على الأسئلة (ليه عملت كده؟ صرفت الفلوس دي في أيه؟ إحنا بنحرمك من حاجة؟) بعدها قرر أبي بأن يعاقبني، فأمر أمي أن تضع لي الطعام في طبق بعيداً عنهم، وحرماني من المصروف اليومي، لكني لم أعبأ بالأمر وظلت الابتسامة على وجهـــي لـــشعوري بانتـــصار غريب، رغم أنه عوض أخي بمبلغ أكبر، وأكبر، وصنع له حـــصالة خشبية أخرى ليبدأ رحلته في جمع كنز جديد، لذلك لم يكن أمامي سبيل إلا التحليق بعيداً عنهم، في دنيا أخـــرى أصـــنعها بنفـــسي ولنفسي، أعيش فيها، وأستلذ بمعالمها، ثم أرتفع بضحكاتي ســـاخراً من حقيقتي التي لا يعرفها أحد غيري؛ فلم أك لصاً أبداً يومـــاً مـــا، فقط أردت خداعهم .. علقت أمي قائلة (ربنا هيـــشوي إيـــدك في النار) فكنت أرفع رأسي معانداً بعد أن أرسم المـــشهد في ذهـــني كاملاً، فتسري ارتعادة بجسدي أهرب منها بعيداً وأنظر في السماء، لم يكن الله شريراً أبداً، ليشوي يدي في النار، بل كنت أراه يطـــل على بوجهه الجميل من بين السحاب، ويبتسم، لذلك كان يجب ألا أصدقها، هي تشعر تماماً بأن رأسي لا يمكن اختراقه بسهولة، لـــذا كانت تقدم على محايلتي بشتى الطرق، فكنت أفهم جيداً ما ترمـــي إليه في كل مرة، فإما أن أبتلعه برغبتي، وإما أن ألفظه غاضباً لمعاملتي

كمعتوه ساذج، حتى كرهت كل حكاياها التي لم أشعر معها بمتعة يوماً ما، بل كثيراً ما فكرت أن أصرخ في وجهها لتكف عنها، فما معنى أن يهزم الذئب في كل مرة وتنتصر الغنمات؟ وأبي يسقط العشرات من الطير كل ليلة ببندقيته أثناء ممارسته لهوايته المفضلة؟ فلماذا لا ينتصر الطير، ويأتي ليشق بطوننا، ويخرج ما أكلناه من رفاقه حياً كما هو؟ لذلك أدمنت مشاهدة الأمريكيين (Tomand Jerry) دون أن أصرخ ضاحكاً للبهلوان الذي يقفز، ويصعد، ويهبط، ويظهر ،ويختفي في جحره، فقط كنت أتأمل سطوة الشر التي تنتصر دائماً، حتى لو كانت كامنة في فأر لا يتعدى عقلة الأصبع، لا ذئب ضخم بمخالب وأنياب مسنونة يسقط في النهاية في الزيت المغلي وينتهي، لكني استسلمت لخيالي، وجلست معه وجهاً لوجه في قبو مظلم ننتظر الموت، فعشت طوال حياتي أشعر بذنوبي من خلال ذنوبهم (صلي في الجامع يا يوسف) فلا أخجل من طرح السؤال على نفسي (لماذا لا تصلي أنت أيضاً بالمسجد ؟) وظللت أتمرد وأتمرد (اقرأ القرآن زي ما بقرأ يا يوسف)- (ولماذا لا تقرأ أنت كما أقرأ أنا؟) فكنت أتحسر على تلك الرخصة التي منحتها لهم الأيام فصاروا كباراً لا ينظرون إلينا إلا بعين واحدة لا تقوى على رؤيتنا في وضح النهار. لكني كنت أثأر لنفسي بتلك الحكاية التي كثيراً ما ترددت بمنزلنا، حتى عادت كالذكريات في مجالس النساء؛ فأبي كانت تجمعه قصة حب بخالتي ليلى، ولكن سنواته السبع التي قضاها في الجيش حطمت الأمل في

حب طلبه من الدنيا، ورحل مع أول عريس جاء ليخطف منه عشه الصغير، فبنت الريف لا تنتظر النضوج على أشجارها، بل تـــسقط سريعاً في بيت زوجها (جواز البنت سترة) والبنت تُـــسحب مـــن رأسها إلى فراش ينتظرها، وبعض بقع دماء تتعلق بها براءة من ذنب لم يرتكب، فعوضت جدتي إحسان ابن أختها بأمي التي كانت تقوم بدور رسول الغرام بينهما، فشهدت على حب ولد، وعاش لحظات ثم قضى نحبه قبل أن يرى الدنيا، وفي النهاية دفعت هي قربان العفو بزواج صنعته الصدفة واستمر رغم أنف كل روايات الحب الجميلة التي جاءت بها كتب الأساطير، فجفت بين صفحاتها زهرة ظلـــت تتشبث بعطرها حتى مرور ألف عام مضت، ولكن بما أنهم عاشـــوا كما هم كباراً، فوجب علينا أن نصدقهم، ونسير مع كذبهم حـــتى الباب، فنسي أبي حبه القديم كما نسيت ليلى، ونسيت أمي الرسائل الطرية التي حملتها فوق جناحها الملون لتصل إليهما بكامل أناقتـــها، فانصهرت الحكاية، وانهالت فوق رؤوسنا نحن الصغار، لنصغي إليها رغماً عنا ونضحك لنهايتها رغماً عنا إلى أن نسقط فاقدي الـــوعي بالحياة.. يرفض جدي رشاد أن تهيج رائحة تلك الحكاية في بيتنـــا، وبنظراته الحادة يقطع الطريق على جدتي فاطمة من الانخراط في مط أحبال الماضي، تتوقف تماما، ثم تؤنب نفسها بعد أن تنتبه لوجودي (أعمل أيه في لساني ده مش عايز يسكت أبداً ؟) يطلـــب جـــدي فنجاناً من القهوة، وكأنه أراد أن يلهيها عن خطئها، ويعود يثبـــت نظارته على أنفه ثم يواصل القراءة في واحد من الكتب الضخمة التي

تملأ عليه غرفته، يرتشف القهوة، وينظر إليّ من حافة الفنجان (مفيش راجل يقعد مع الحريم يسمع لكلامهم فاهم؟؟) يخفض سبابته المشرعة في وجهي، ويقرفص رجليه بعد أن يصدر بعض التأوهات التي ترتسم على وجهه، ويسند الكتاب على ركبته، ثم يشير نحو كتاب آخر، ويطلب مني مناولته إياه (نزهة المجالس ومنتخب النفائس) يؤكد عليّ بقراءة العنوان، فأعيد هجاء الكلمات في صمت –هو يعلم ذلك- فتح الكتاب في حجره وأخذ يقرأ عليّ ببطء شديد " قال بعض الصالحين رأيت صياداً بالهند كلما صاد سمكة دفعها إلى ابنته فترسلها في الماء، وهو لا يعلم، فلما فرغ جاء فلم يجد شيئاً فسألها عن ذلك قالت سمعتك تقول عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تقع سمكة في شبكة إلا إذا غفلت عن ذكر الله" فكرهت أن تأكل شيئاً غفل عن ذكر الله وقيل إنها كانت السمكة تسبح في يدها فقالت البنت ما دفعت إلي سمكة إلا وسمعتها تقول سبحان الله فقطع الشبكة وتاب عن الصيد. " ينتهي من القراءة ثم يضم الكتاب إلى صدره(الكتاب ده يفضل لآخر واحد يعيش في البيت ده) وكأنه أراد أن يحملني الأمانة، لكنني كنت شارداً عند أطراف الحكاية، أنتظر صوتاً أراد أن ينبجر من رأسي(كيف وافقت أمي أن تتزوج من أبي بهذه الطريقة؟) حتى أفقت على رشفة أخرى من فنجان القهوة، فلم يكن أمامي خيار آخر إلا أن أنصاع، وأذعن لوجودي المحتوم، كي لا أقع في شبكة صياد هندي آخر أصر ألا يتوب أبداً عن الصيد..

أتأمل الصورة التي يحملها الجدار، وأنظر إلى شاربه الرمادي النحيف، وقسمات وجهه الباسمة، ثم أعود إلى شارب جدي، إلى عينيه، وفمه، وشعره، ولون بشرته، فأظن أنه هو، لكني يوماً أشرت إليها، وسألت أبي (دي صورة جدي يا بابا؟) فجاءت إجابة أبي لتخيب هذا الظن، فالصورة لم تكن له بالطبع، بل هي صورة أخرى تعلقنا بها، وحملتنا إلى جوارها أياماً وأياماً، فبدأ التاريخ عندي من هنا، من هذا الجدار، فلم أتخيل أن تبتعد تلك الصورة بعيداً عن ملامحي، أو ملامح جدي وجدتي وأبي، وأمي وأخي، فصورة يحملها جدار بيتنا هي صورة نمتلكها جميعاً حتى آخر فرد سيبقى هنا، فعاش عبد الناصر فينا كما هو زعيماً كما عاشت كتب جدي بيننا، فيحكي أبي عن الزمن الجميل، عن العزة عن النصر عن الكرامة، عن الانكسار والهزيمة، عن الفقر الرحيم (كنا كلنا زي بعض) عن البيوت العامرة بالأصوات، وقناديل الضوء، عن حياة الزعيم عن موت الزعيم، فنحكي معه قصصاً تلتصق بنا كما القدر، ونغني بقلوب طازجة أنشودة الوطن الأسطورة، حتى نشعر أن الله لم يخلق غيرنا على وجه الأرض، فلا نرى إلا نحن، فنحن الأقوى، ونحن الأفضل، ونحن الزعماء، ونحن الكبار، ثم ننظر لوطننا بعين يملؤها السراب (مصر أم الدنيا) فعشنا لا نعلم عن الدنيا غير ما صنعناه لأنفسنا دون أن نرى الآخرين، فلا نقبل هزيمة أبداً، ولا رؤوساً أخرى إلا رؤوساً جاءت تنحني لنا، وتطلب العفو، والسماح، حتى تضخم داخلنا الوطن العظيم وصار بالوناً كبيراً لكنه لا يحوى داخله

إلا هواء ميتا جاء يخدع النجوم، ليرتفع ويرتفع دون أن يعلم متى سيتوقف، يغريه التحليق فيزيد من تضخمه، لكنه سرعان ما ينفجر ويتلاشى قبل أن يرى نفسه، أو يراه الآخرون، لكننا وحدنا من نراه كبيرا جداً، عظيماً جداً، قوياً جداً، وجميلاً جداً ،فنرفع أعناقنا للسماء، ونهتف لرايته الملطخة بالألوان.

بلادي بلادي فداكي دمي

وهبت حياتي فدىً فاسلمي

غرامك أول ما في الفؤاد

ونجواك آخر ما في فمي

سأهتف باسمك ما قد حييت

تعيش بلادي ويحيا الملك

نشيد مدرسي كان يردده التلاميذ في عهد الملك فاروق الأول.

تردد جدتي فاطمة هذا النشيد أثناء ممارستها لأعمال المترل؛ كتنقية الأرز من العوالق قبل الطبيخ، أو الخبيز أمام الفرن البلدي، أو كنس أرضية البيت ومسحها، حتى حفظته كاملاً عن ظهر قلب، ودون أن أعي أخذت أنشده على نفسي كثيراً، لكني كنت أتوقف عند كلمة (ملك) وأسرح بخيالي مع مسلسل كنت قد شاهدته بشهر رمضان (محمد رسول الله)، فأرى عرشاً يعتليه رجل فارع، يكتسي وجهه بملامح صارمة يصنعها الصمت يحمل في يده اليمنى (صولجاناً) ويبرق رأسه بتاج ذهبي مرصع بيواقيت حمراء، في حين

يسجد تحت قدميه مئات البشر.. أخرج من المشهد سريعاً خوفاً من السقوط أكثر، وأكثر، ثم أرتمي في حجرها (مين الملك ده يا ستي؟)، فتجيب بإيجاز (فاروق الأول ملك مصر والسودان)، أصمت قليلاً ثم أعود لمشاغبتي (هو مات يا ستي؟) فتمصمص شفتيها وتتنهد قائلة (والله ما انا عارفه يا ابني إن كان مات ولا لساه عـايش) أعـود لصمتي، وأسرح في أمر جدتي التي هتف بحياة ملـك لا تعـرف إن كان حياً أم ميتاً..

أحضر خالي تلفازاً ضخماً كان قد اشتراه جدي مـن العـراق، وأعد جلسة ببستان البيت دعا إليها جميع أفراد العائلـة لمـشاهدة مباراة كرة القدم المنتظرة بين فريقي منتخبنا القـومي، ومنتخـب انجلترا بمونديال كأس العالم، بعد التعادل المبهر مع فريـق هولنـدا، والذي سقطت فيه عدالة السماء على (استاد بـاليرمو) انطلقـت صافرة البداية، فعلت الصيحات،والتهليلات والكلمـات المحفـزة، والتعليقات الجانبية التي تتخللها رشفات اللبن مع الشاي وطقطقـة (اللب، والسوداني)، ومع اقتراب النهاية بنتيجة لا ترضيهم انتـشر السباب، وعلت الشتائم في وجه اللاعبين، والحكم الأجنبي، حـتى تطاير البصاق على شاشة التلفاز مع إعلان النتيجة النهائيـة بفـوز منتخب انجلترا على منتخبنا المصري (١/صفر)، شعرت بخيبة أمل لا يمكن أن أنساها، فكانت هي أولى المرات التي وضعت يدي فيهـا على رقعة الوطن من بعيد، وبخاصة بعد التعقيب الغريـب الـذي

تلفظت به جدتي فاطمة مستنكرة (الانجليز ولاد الكلب دول ورانا ورانا حتى في الكورة ؟) فخيل لي بأن الانجليز دخلوا بجيوشهم ليغتصبوا الوطن من جديد، هذا الشعور الذي ينتاب الرجل عندما تنتهك حرمة بيته دون أن يكون قادراً على فعل شيء، فساد الحزن الوجوه، وتفاقمت كلمات الحسرة (إذا كنا مش فالحين في حاجة أبداً هنفلح في الكورة؟) تفرقت الجلسة، وعاد كل منهم إلى منزله يعلق برقبته خيبة الأمل.. لكني تربعت أمام التلفاز لمشاهدة الفيلم الكوميدي (البنديرة) الذي بثته القناة الأولى بعد انتهاء المباراة مباشرة، وكأن هناك من أراد أن يخفف عنا، أو يعيد لنا توازننا بعيداً عن صدمة الهزيمة، وكالعادة أحرز منتخبنا الوطني عشرة أهداف نظيفة في مرمى المنتخب الإنجليزي، هكذا أرادوا لنا أن نشعر ..

-٥-

الطريق ما يزال طويلاً لكن المسافات لا تطوي الماضي بل يظـل طريداً يختبئ بين شقوق الأرض، ولا يخرج إلا في جـنح الظـلام يبحث عن معتوه من بني آدم أراد أن يسلم نفسه لأحلام مفترسـة، لفظها الواقع في ليلة مطيرة بلا مأوى، فظلت تلهث مـن الجـوع والعطش وآن لها أن تأكل وتمتلئ وتتخم بطونها باللحم الآدمـي.. سطرت بصري للأمام حتى اصطدم بمنحنى، فارتد سـريعاً دون أن أرى منه إلا ومضة خاطفة انفجرت وتكسرت، وخرجت منها يـد سوداء جذبتني بعيداً عند أطراف ذلك اليوم الذي جلست فيه جوار أبي في إحدى مقاهي المركز الفاخرة أشرب عصير الليمون، وأرقب الحديث المطروح على الطاولة بينه وبين أصدقائه، وهـم يتـابعون العرض العسكري المهيب بالتلفاز (دي صواريخ سام ٦- بص على الدبابة الروسية – شايف الطيارات الميج ٢١.... أيه ده ؟ فيه أيه ؟ .. مش معقول !):

انقطع الإرسال ... أطلقوا الرصاص على السادات..

– هل مات؟؟

– لا أحد يعرف ما الذي يجري، كل شيء حدث بسرعة ..

قلبي يدق ...

– اليوم عيد النصر، كيف يغتال الرئيس؟!

- افتحوا المذياع ...

(الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يرتل القرآن)

- قتل السادات وهو يرفع رأسه للطائرات...تأكد الخبر.

بالشارع كانت الحركة غير عادية، الناس تـــركض في طريـــق العودة، لابد وأن شيئاً ما سيحدث..

- ستقوم القيامة مثلاً؟؟

- ربما عندما يموت الرئيس تقوم القيامة..

- الرئيس لا يموت..

تم إعلان حظر التجوال، فازداد الزحام، وانتشرت الـــشرطة في كل مكان، انقطعت المواصلات تماماً،واختفت سيارات الأجرة من الشارع ..

-كيف سنعود إلى بيتنا ؟؟

قلبي يدق..

حملني أبي وضمني إلى صدره، وأخذ يربت على ظهري، وهـــو يشير في محاولة يائسة لسيارة هاربة..

(My name is Hosni Moubarak)

كانت تلك هي الإجابة التي سمعناها من الرئيس الجديد بكل ثقة على الصحفية الأجنبية التي أوقفته على سلم الطائرة، لتـــسأله عـــن سياسته القادمة..

طبعت الطائرة الضخمة ظلها على الأرض، وحملت قلوبنا الصغيرة معها إلى السماء، فننظر إليها ونعدو على حافة الماء، نصرخ.. ونلوح لها بأيدينا ونمتطي الهواء، نتعلق بأرجل النوارس ونحاول الطيران لأعلى لكننا سرعان ما نسقط فوق موج البحر، فترتفع هي وترتفع وتلمع بين السحاب، فنتعجب، وتسكن قلوبنا الحسرة، بل ونصاب بالعجز أمام تلك القدرة (تعرف تعمل طيارة زي دي يا شهاب ؟) فيبتسم ساخراً لوجوهنا، و يمد عينيه نحوها ثم يحلق معها منتشياً ..

نشتري الخيط السميك، ونجمع البوص وقصاقيص القماش، والورق الملون، ونلتف حوله ليصنع لنا مثلها، فيصر أن تكون طائرتنا أصغر بكثير من طائرته، وعندما ينتهي نعتلي أسطح البيوت لنطلقها في الهواء، لكن طائرة شهاب تأكل كل شيء، وتحجب عنا الشمس، فلا تسمح لطائراتنا أن ترتفع إلا قليلاً فلا نكاد نفرح، ونصفق حتى تسقط سريعاً وتعلق بأسلاك الكهرباء ..

على شفاة البحر ننثر اللآلىء، ونلتقط الصدف، نجري.. نضحك..نكركر.. ونستلقي على الرمال نجمع منها بيوتاً تحتوينا، ونملأ الفراغات الزرقاء، ونطير نحو ساحة المياه نغسل وجوهنا بالقادم من هذا العالم البعيد، وندفن رؤوسنا في الأعماق لنرى ما يختبئ بأعيننا، فنلمح رتوشاً سوداء تزحف نحو النور، وأنفاساً أرادت الحياة، فنتزع أنفاسنا منها قبل أن تسحبنا إليها وتأخذ منا ما

جاءت تبحث عنه عند شاطئ أحله الله لنا، وحرمه علينا -أحب البحر- لكني لا أتحمل السكنى فيه، ولو للحظات، فأنظر إليه كمن يشتهى الحلوى، ويستلذ بها دون أن تطال فمه، هكذا هو كحلوى البركة التي اشترتها لنا جدتي إحسان ثم ماتت قبل أن تذوق حلاوتها في أفواهنا، لكن البحر لا يموت، بل يعيش ليخلد من يحبه .. أحب البحر.

اكتملت حلقة المتنافسين في الماء، أخي وشهاب كانا من بينهم، أما أنا فوقفت على الشاطئ أنتظر الفائز الأخير، جذبوا نفساً عميقاً، وانتظروا الصافرة التي أطلقتها بكل قوة، فاختفوا جميعهم في الأعماق، وبدأت العد (١..٢..٣..٤ ..) انتفض الأول، فالثاني، فالثالث، ثم أخي، خسروا جميعاً إلا شهاب كان هو الفائز الذي لم يخرج أبداً ليمد لسانه عن آخره أمام وجوههم، ويقطع الهواء معلناً انتصاره.. لقد غاب شهاب، وظلت طائرته تحلق في السماء، لكنه نسي أن يعلمنا كيف نصنع لأنفسنا مثلها..

جففت دموعي وتركت أنفاسي تنساب مع بقايا الطريق، فألقاني التيار إلى هناك، إلى أعماق البحر لأرى وجه الطفل الباهت، الذي يسبح كالعوالق في المياه، وقد تآكلت ملامحه، وترسبت في القاع كما الحجارة، حتى تعرت عظام الجمجمة تماماً، فظل ينظر إليّ محتفظاً بابتسامته الساحرة، فلم تغادر ملامحه أبداً وجهي، وصوري وكل أشكالي الجميلة التي كنت أراها دائماً مرسومة على جدران القمر المتجمد على صفحات المياه..

استلقت جدتي فاطمة في فراشها تئن من المرض، فأحضر لها أبي كل أطباء المركز، ولكن آلام الرأس لا تحتمل بل تزيد، ولا فائـــدة من علاج ملأ عليها غرفتها، فقرر جدي أن يسافر معهـــا صـــباحاً ليعرضها على طبيب بالقاهرة (الطب في مصر..أما هنا فبهايم) يردد تلك الكلمات كلما سمع أنات جدتي في فراشها.. استيقظت علـــى حركته الهادئة بالغرفة، كان قد انتهى من ارتداء جلبابه الأبـــيض، فطرح على كتفيه عباءته السوداء، ثم مد يده داخل خزانة الملابـــس يلتقط حقيبته الجلدية الصغيرة، وباليد الأخرى كانـــت مـــسبحته تضيء في الظلام الخافت، تطلع في ساعته منادياً على جدتي (شهلي يا فاطمة عشان نلحق صلاة الجمعة في سيدنا الحسين) فاقتربت منه هامسة (وطي صوتك ياحج...يوسف هيصحى) فالتفـــت ناحيـــة السرير ورسم ابتسامة صباحية على شفتيه، وقال هامـــساً (مـــش عارف ليه نشف راسه أنه ينام جنبي ليلة إمبارح؟) فردت جـــدتي تبادله الابتسامة ثم اقتربت مني، وأحكمت حولي الغطاء، وجلس هو على طرف السرير يمعن النظر في وجهي كثيراً، ثم نهض واقفاً (معاك الورقة الي فيها العنوان يا فاطمة ؟) فأجابته جدتي من خارج الغرفه (أيوة معايا متقلقش) خرج من الغرفة ببطء شديد ثم حجبه البـــاب عن الصغير الماكر، أزحت الغطاء عني، وحدقت في السقف دون أن أجد تفسيراً واحداً لتظاهري بالنوم العميق، لكني احترفت العـــيش داخلي، أتفرج على الدنيا من خلف جدار شفاف، فـــأرى النـــاس كما يحلو لي أن أراهم، أدوس هيبتهم باختبائي، وأضحك لغبـــائهم

المستفز، وأصنع لهم شركاً وأنتظر عبورهم لأقتنص من قلوبهم الخوف، فأنفذ به من بين مسامهم المنفرجة دون ألم، فلا ينتبهوا لوجودي كضيف ثقيل جاء يسترق السمع منهم، ويأكل ويشرب في أطباقهم مستمتعاً بدهائه..

"يا حبايب يلا يلا.. يلا اتجمعوا.. يلا..واتعلموا.. واتمتعوا.. حنشوف حواديت.. أجمل حواديت.. يلا يا كتاكيت.. يلا يا كتاكيت.. حنشوف أفلام.. أفلام كارتون..وحنشوف حكايات في التلفزيون .. سينما الأطفال .. سينما.. سينما الأطفال.. أحلى حقيقة وأحلى خيال"

يجلس أبي أمام الطاولة لتناول الإفطار، وأمي إلى جواره تصب الشاي، أما أنا وأخي فقد اعتدنا تناول ساندويتشات الجبن، ومربى التين السريعة أو علبتين من (بسكويت لوكس) مع كوب اللبن، والجلوس أمام التلفاز لمشاهدة برنامجنا المفضل (سينما الأطفال)، فنغني معاً مع المقدمة في انتظار (ماما عفاف) التي تعرض بصوتها الدافئ المسلسل الأمريكي (الكلبة لاسي)، أو تحكي لنا عن المهرج (فرديناند) الذي كان يسكن في عربته (الكارفان)، تأخذنا الأحداث وننسى أننا هنا، تدق قلوبنا حزناً .. خوفاً .. فرحاً، فنظن أن الدنيا كلها هكذا تصب في نهايات نرضاها، ونسعد بها كسعادتنا بالحلوى، والملابس الجديدة، لكننا لم نكن نعي بعد أننا نعيش دنيا أخرى صنعها لنا شخص ما كي نصفق له، ونتعلق به، فيشكلنا كتماثيل الصلصال، كتل تشبهنا تماماً لكنها بلا ملامح.

جلس أبي مهموماً لمرض أمه الذي طال، ففتح المصحف وأخذ يقرأ بصوت خفيض سورة الكهف، فأنصت لتلك الحكاية الرائعة التي قصها علينا مرات ومرات، وأتخيل كيف يرقد الكلب وكيف ينام أهل الكهف كل تلك السنين؟ حتى فرغ من القراءة، ورد المصحف في مكانه بعد تقبيله وملامسته لجبهته عدة مرات، تطلع في ساعة الحائط ثم قال بضجر (كان مفروض أروح معاهم) فردت أمي بلهجة مطمئنة (متقلقش خير ان شاء الله) لكنه ظل يردد تلك الكلمات نادماً على رضوخه لرغبة جدي في عدم اصطحابهما إلى القاهرة والمكوث بالبيت لاستقبال طلبات أهالي الدائرة كما عودهم يوم الجمعة من كل أسبوع، لكن أمي مازالت ترده إما مطمئنة أو مازحة (يعني عايز تبقى عزول ولا أيه ؟) حتى انتهت من كي الجلابيب البيضاء التي سنرتديها أثناء تأديتنا لصلاة الجمعة ..

على طاولة الغداء نتابع برنامج (عالم الحيوان) فيقشعر بدني لأسد خلع رأس غزال بقضمة واحدة، لكن أبي في عالم آخر يقلبه بملعقته في طبق الطعام الذي أمامه،حتى أنه نسى أن يقربها إلى فمه منذ جلسنا، ورغم محاولات أمي لجذبه من شروده إلا أنه أفلت الملعقة من يده، واتجه ناحية غرفة نومه، وأغلق الباب من خلفه ... لحظات مرت في هدوء سمعنا بعدها جلبة وأصوات غريبة تقترب من النواح تأتينا عبر النوافذ المطلة على الشارع، لكنها كانت تقترب من البيت، فتكبر وتتضخم (لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإن إليه

راجعون .. إزاي ده حصل؟) وبكاء مكتوم، وأنين، قفزنا خلف أمي إلى أسفل لنعرف ماذا يحدث (هو فيه أيه.. هو فيه ايه؟)، نظرت أمي للوجوه الباكية ثم صرخت وهي تضرب بيدها على صدرها (خالتي حصل لها حاجة؟!) لكن جدتي كانت تجلس في ركن بعيد تطالع وجوه الناس في ذهول، تقص علينا ما جرى؛ كان جدي يتحدث إليها، وهي تجلس إلى جواره (بالأتوبيس) المتجه صوب القاهرة، صمت عن الكلام قليلاً، ثم أسند رأسه للخلف ليستريح، لكنه لم يعد للكلام بعدها أبداً..

تسللت إلى الغرفة المغلقة، وأخذت أتأمل وجهه الممدد على السرير الحديدي الذي تعتليه ناموسية بيضاء شدت بإحكام على أعمدة نحاسية أربعة، ينفذ خيط الضوء من بين فتحات الشيش الموارب، فيستلقي على جلبابه الأبيض، في حين ينام مسنداً رأسه للوسادة بارتفاع طفيف، اقتربت منه ودفنت راحتي الصغيرة في كفه محاولاً إيقاظه، لكنني تفاجأت بأبي يقف إلى جواري بعد أن اقتحم علي الغرفة قائلاً بصوت متحشرج: جدك مات، فنظرت إليه مستغرباً، وسكنت للحظات ثم أحنيت ظهري نحو رأسه وقبلته عليها، فرأيته يبتسم، خرجت من الغرفة مذهولاً وأنا أبكي كما يبكي الآخرون.. .. جدي مات .. جدك مات .. هكذا كان يردد الجميع..

(الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يرتل القرآن)

أخفت أمي فرحتها بنجاحي أنا وأخي في امتحانات نهاية العـــام حرصاً على شعور أختها ليلى التي فقدت ابنها شهاب من ناحيـــة، وخوفاً من جدتي فاطمة التي فقدت زوجها بالعام نفسه من ناحيـــة أخرى، فيحظر دخول الشيكولاتة، أو زجاجات المياه الغازيـــة في بيت الميت، كما تحظر طبخ بعض المأكولات كالمحاشي، والحلـــوى بكافة أنواعها، أو أن يتغير مؤشر الراديو عن إذاعة القرآن الكريم، أو فتح التلفاز بأي شكل من الأشكال، فتتشح النساء بالسواد وتحـــرم تماماً من ارتداء الملابس الملونة، ويطلق الرجال لحاهم ويفرضون على أنفسهم حالة من التقشف الشديد، وكذلك تؤجل كل الزيجـــات، والأفراح، والليالي الملاح، حتى يمر عام كامل على ذكـــرى الوفـــاة (السنوية)، لكن في هذا اليوم فقط سمحت أمي لنا بفتح التلفاز سراً في غياب أبي لمشاهدة برامج الأطفال بأدنى صوت يمكن سماعـــه، ثم أعادت تغليفه بالكسوة القماشية البيضاء التي تهيئ لمن يراه بأنه شيء خارج عن نطاق الاستخدام، لكن خالتي ليلى اقتحمت علينا البيت بالزغاريد ومن خلفها مصطفى يعلق طرف جلبابه في فمه، ويحمـــل بين يديه صندوقاً من المياه الغازية، يتوقف لنزع غطائها لكل مـــن يقابله (اشرب حلاوة نجاح شهاب) نجح شهاب بتفوق، ولم ينتظر ليجني ثماره كالعادة بل تركها لنا نلهو بها، كمـــا تـــرك طائرتـــه، وأشياءه الصغيرة، فشربنا حلاوة نجاحه، وفرحنا بها رغم أننا حرمنا من تذوق حلاوة نجاحنا نحن الأحياء..

لم أر جدتي فاطمة تبكي على موت زوجها أبداً، بـــل كانـــت تتصرف وكأنه لم يمت بعد، وأحياناً تنفلت منها بعض الكلمات التي تفضح لحظاتها التي تجمدت عند هذا الحدث، لذلك حرص الجميـــع ألا يذكرها أبداً بذلك اليوم، فظلت ملابس جدي كما هي تجمعها كل خميس وتسهر على غسيلها، ونشرها على الحبـــال المـــشدودة بالفراندة، تنظف كتبه وتعيد ترتيبها، ولا تسمح لأي مخلوق مهمـــا كان أن يمسها أو يحركها من مكانها -إلا أنا- فكان مباحـــاً لي أي وكل شيء داخل البيت، فأسير بين أركانه مختالاً، وأرتمي في حجر جدتي وأنفض عنها الحكايات القديمة، أغفو في أرجائها، وأصـــحو مكتسياً بروح تتلقفني في حضنها، فتضمني إليها وتعترف بأن جدي قد مات (جدك كانت روحه متعلقه فيك يا يوسف)، لكني كنـــت أشاركها الحقيقة التي تنثر الأمل في الحياة، فطلبت من أمي أن تتنازل عني لأشاركها البيت الذي فرغ عليها ولم يتبق منه إلا بعض مـــن ذكرى وجدار قديم يحمل صوراً للماضي وأشياءً أخرى، لكني كنت أتحين اللحظة التي تسحبها لنوم عميق، وأصعد لأنام في ســـريري، وأفكر في الصمت الذي رقد بيننا واستعظم، فجعلني أهرب باحثـــاً عن الأمان في وجه أمي وأبي ... بل بين أنفاسهما الـــتي أصـــدقها تماماً كما أصدق الطائرات المحلقة في السماء.. فتعودت أن أحـــصل على كل شيء، لذلك أردت كل شيء، فكنت أسمـــع مـــن أمـــي حكاية (شعبان الطماع) الذي يضع يده في جرة البندق ويملؤها عن آخرها فتنحشر، ولا تخرج إلا بعد أن تنصحه أمه بأن يفـــرغ مـــا

بقبضتة، ويأخذ كمية صغيرة ليستطيع الخلاص بما من داخل الجرة، فأتعجب وأسأل نفسي لماذا لم يفكر شعبان في كسر الجرة ليأخذ ما يكفيه فيملأ جيوبه ويديه، وفمه؟ لكني لم أكن أعلم أنها مجرد حكاية تفوق العقل، أو أن عقلي هو الذي تفوق عليها فجعلني أبحث عـــن حلول أخرى،حتى ولو كانت أكثر عنفاً من فعل الحكاية نفـــسها، لذلك لم أمنح نفسي الفرار من غرائزها، وتماديت في اللـــهو مـــع شيطاني، فأحياناً أخدعه وأملأ الدنيا ضحكاً من غبائـــه، وأحيانـــاً يخدعني هو فأسقط سريعاً في العذاب (لو عملت حاجة غلـــط يـــا يوسف ربنا هيشوفك) فأتطلع في تقاسيم وجوههم التي تـــنكمش بشكل مضحك لتفتعل الحدة، وهم يشرعون سبابتهم في وجهـــي، فأكيد في نفسي ارتكاب الخطأ مرات ومرات ...

كان يجب ألا أصدقها..

لكني كنت في سن لا يسمح إلا باحتواء أكاذيب الكبار، فما بالك أنت بمن تحترف الكذب أكثر من أي كبير آخر في عالمها؟!... ظلت تخدعنا طيلة ستة أعوام كاملة، حتى ملأت جيوبنا

الصغيرة بأوهامها، فأحكمت على رؤوسنا أغطية الخوف..

هـــه..!

كيف كنت أصدقها هذه المعتوهة ؟ أقصد -لا شيء- لكنها حقاً معتوهة.. (اخرسوا، ولا نفس، إلي هيتكلم فيكم هشوفه بعيوني إلي ورا) كانت تقول تلك الكلمات ثم تواصل الكتابة بالطباشير على

السبورة السوداء. تمتلك أربعة أعين –واو– هي امرأة خارقة إذن، فكنت أتعمد وخز زميلي بسن القلم كي أختبر تلك الأعين التي لم أرها تطل علينا يوما ما، ورغم ذلك كنت أصدقها، لأني تعودت أن أرى كل الأشياء لكن بعينين فقط، فلا يوجد جارور مغلق بالبيت إلا وأعرف على ماذا يحتوي، ولا يوصد باب إلا وعلمت ماذا يكتز خلفه، ولا تغلق خزانة أو صندوق، أو حتى حقيبة صغيرة إلا وكنت أنا آخر من تقع عينه على ما بداخلها.. أرسلتني أمي ذات يوم لإحضار فستان لها من عند الخياطة جارتنا، وبعد أن أذنت لي بدخول منزلها طلبت مني الانتظار قليلاً بالصالة، ثم تركتني ودخلت إحدى الغرف وأغلقت الباب خلفها، مرت لحظات من الانتظار دفعني فضولي فيها أن أطالع ما يدور بالداخل، فاتجهت صوب الباب وفتحته بهدوء فتحة يكاد ينفذ منها بصري، فإذا بي أرى ثلاث فتيات يقفن أمام المرآة يتفحصن فساتينهن، ويتحسسن أجسادهن، ثم بدأت واحدة في خلع ملابسها، فعضت على شفتها عندما انتبهت لوجودي، فابتسمت لها الخياطة قائلة (ده لسه عيل صغير) لكن الصغير أخذ يتابع كل شيء ...كل شيء... ومرت الأيام، وتلك الأشياء لم تمر، بل ظلت، وظلت، وظلت .. حتى علمت لماذا كانت تنظر إليّ إحداهن وتضحك، وهي تحشو صدرها بالمناديل الورقية .. عندما عدت إلى البيت، أخبرت أمي بما رأيت فما كان منها إلا أنها صفعتني على وجهي، وهي تصرخ بشدة (إياك تعمل

كده تاني..)، فأسندت رأسي لأحد الجدارن وأخذت أبكي لفعل ذنب لم أقترفه..

وقفت على رأس الشارع الضيق الذي ينفتح على ساحة كبيرة تحوي بيتنا، وبدأ قلبي ينحدر حتى كاد يحبو على الأرض عندما كنت أقترب من ضوء الشمس المتفجر من الظل عند النهاية، فأخذت أحدق في البيوت المبنية بالحجارة الحمراء على الجانبين، وأحني رأسي إلى صدري كلما رفع أحد المارة عينيه نحوي، لكن تلك الرائحة كانت تزداد حتى غمرت كياني وروحي، وكل حواسي، فحملتني على بساط طائر لألملم العبق المنساب كجدول يشق الأرض برفق وحب وحياة، يبرق ماؤه العذب في الظلام، فرأيت كل الماضي يدور من حولي؛ أصوات الأطفال، ولغط الشوارع، وهمس البيوت، جدي، جدتي، خالي، خالتي، عمتي، شهاب، أخي، أبي، أمي، وكل الصغار والكبار، والجيران، والباعة، والفلاحين، وطقوس الصباح، وعشق القمر، والمساء، والسماء والنجوم، رأيت نفسي، أضحك وأغني، أحصد الفرحات، ثم أبكي، وأبكي، وأنزوي بعيداً عن العالم لأخاطب الله..

انتهى بي الشارع الضيق عند ضوء الشمس، فوقفت أطوح رأسي في الهواء، وأدور حول نفسي فاغراً فاهي، وأنا أجوب ببصري الساحة الخاوية إلا من أكوام قمامة متراكمة، تتصاعد منها أعمدة دخان بيضاء، وبعض صبية حفاة يركلون بأرجلهم كرة

مهترئة في صمت يشبه أعين الموتى، فجذبت نفساً عميقاً وأنا أمـــد رأسي للسماء.. (يا الله.. سأظل أبحث عن بيتنا طوال حياتي إذن!) رددت تلك الكلمات متحسراً، ثم تركت دموعي تـــسقط حيثمـــا شاءت.

القســـم الثاني



-١-

كان يجب أن تعود سحر إلى دينها كي يسمح لنا بالزواج...كنت ألمح في عينيها رتوشاً من ألم فعندما ارتدت عن إسلامها، وتزوجت من الإنجليزي (John Simpsons) كانت وحدها تماماً، لا تتعلق بأي شيء تبكي عليه حتى ولو كان مجرد ذكرى عالقة بركن قصي، فقررت أن تطوي خلفها كل شيء لتبدأ حياة أخرى، بأرض أخرى، تتحدث فيها لغة غير التي تعلمتها في وطنها، هكذا بشرها المهاجر القديم عندما لامست قدماها تلك الأرض البعيدة، لكنها اليوم يجب أن تضحي من أجل أن تتطهر بالتراب الذي انطبع على ملامحها منذ أن خلقها الله، لذلك كانت تقف على جبل التائبين تنتظر الرحمة، وتفكر في المصير المنتظر في عالم لن يغفر لها أبداً مهما غفر لها الله سبعين ألف مرة ...

(كانت تلك هي أمنيتي التي أنتظرها)

أخذت أنظر لعصير البرتقال الراكد في الكأس الزجاجي الطويل، وأستحضر شكل الثمرة كاملاً قبل أن تدهسها شفرات الخلاط وتحول أنسجتها المتشابكة إلى سائل مثير للعاب، ثم رفعت طرف عيني إلى وجهها، فكانت تسحب رشفات من قهوتها بتلذذ، وهي تمسك الفنجان بأطراف أصابعها كفتاة أرستقراطية ولدت وعاشت في القصور... توقفت تماماً وعلقت نظرها نحوي في صمت وهي تدفع دخان سيجارتها في الهواء، كنت أرى ذات الطفلة بفستانها

الوردي القصير، وشرائط شعرها الساتان الحمــراء، وهــي تقفــز وتضحك وتطير هاربة من بين مخالب الولد الماكر الذي اختبأ خلف الجدار عندما صرخت مستنجدة بأمها وهو يرقبها من بعيد متحسراً لضياع فرصة الانقضاض عليها، ابتسمت وكأنها تقــرأ أفكــاري (اتغيرت كتير مش كده ؟) فابتسمت ابتسامة خاملة، وبــدأت في سحب العصير دون أن أجيب..

غادرنا مبنى النقابة بعد المحــاولات الفاشــلة لمقابلــة نقيــب الصحفيين، لم يكن هو المسئول الوحيد الذي رفض مقابلتها لكنها كانت تصر أن تهبط عليهم من وطنها الآخر بكل قــوة، فكــانوا يتهربون منها وكأنهم يدفعون عنهم قدراً قادما إليهم بأرواح شريرة، فتوالت التصريحات بالتبرؤ منها وشطبها من كل سجل يحمل اسمها بعد إعلان اللعنة عليها، ورغم ذلك هي تصر أنها ليست متهمة، ولم ترتكب ذنباً واحداً يمكن أن تبرئ نفسها منه، فقط هــي عــادت لتصرخ في وجوههم بأنها ستستمر وستمضي في طريقها دون ندم، ولن تفكر لحظة في تقديم فروض الولاء والطاعة لأربــاب الــوطن العظيم، كنت أتلقى ضغوطاً كثيرة للتخلي عن تلك القضية، ولكنني كنت أقترب منها لأعيش الأمل، وأعيد بناء الذكريات القديمة بعــد أن تهدمت قواعدها وطواها التراب، فأنا أعرفها جيداً وشاهد علــى أحلامها الصغيرة التي كنا نرتلها معاً تحت شجرة الجميــز العتيقــة، وأعلم جيداً من أي باب يمكن أن تعود هي، لذلك لم أبال بتلــك

التهديدات التي كانت تستقر في صندوق بريدي كل يوم حتى أن الكثير منها حوى توعداً بالقتل ..

وضعت أمي المصحف في يدي وضمتهما بين كفيها بكل قوة (احلف لي على المصحف إنك هتبعد عن البنت دي يا يوسف)... تصبب العرق من جبيني، واصفر وجهي... سحبت يدي من بين كفيها، وأدرت لها ظهري متجهاً ناحية باب الشقة، وقبل أن أنزعه من الجدار لأتجه إلى الشارع كي ألتقط أنفاسي، التفت إليها وبلهجة متألمة تلفظت (مقدرش)، ثم أوصدت الباب، طرحت المصعد خلفي، ونظرت إلى الدرج الرخامي، وأنا أفكر في أشياء تبدو واهية لكنها تتذبذب أمامي كما الانحناءات التي يشقها الخط المتسرب إلى أسفل دون تردد، وأخذت أستعيد ما تبقى لي من ماض سحيق آن له أن ينجلي، فتعلق بشعرة بالية يتأرجح عليها كما الأطفال ليشعر ببعض المتعة ثم يسقط سريعاً مرتطماً بالأرض .. هبطت وأنا أدوس الدرج ببطء شديد دون أن أحدد إلى أين أتجه، فوقفت في منتصف المسافة، وأمسكت هاتفي المحمول، وبحثت عنها في قائمة الأسماء، ترددت كثيراً قبل أن أضغط زر الاتصال، لكني في النهاية لم أستطع المقاومة، وخضعت لتلك القوة التي تسحبني إليها مع أول دقة لفظها هاتفي في طلب هاتفها.. دقات.. دقات لكنها لا ترد..

لم يكن أمامي إلا الشارع الطويل الذي سحبني معه -مشيت كثيراً- حتى وجدت نفسي جالساً على مقهى بالتحرير، كان

الضباب يعانق المباني التي تلف الميـــدان، ويتبخـــر مـــن مـــصابيح السيارات العابرة، فبدا المكان كأحياء (أوين ويستر) عندما يـــصفها معجونة بغموضه الجميل، فنرى الرجل القادم من نهايـــة الـــشارع المظلم يجر خلفه الضباب، مرتدياً معطفه الطويل، وقبعته (الكاوبوي) السوداء التي ينحني بها من رأسه ليغطي نصف وجهـــه العلـــوي، ثم يسند ظهره لأحد أعمدة الإنارة ويقف يرقب الظل المتسرب منه في صمت، فقررت أن أغادر إلى مكتبي قبل أن يحضر القهوجي الشاي الذي طلبته فور دخولي إلى هنا، لكنه كان أسرع مـــن خـــاطري، فوضع كوب الشاي أمامي برفقة كوب آخر من الماء ثم التقط الجنيه الموضوع على الطاولة وقبله عدة مرات مقرباً إيـــاه مـــن جبهتـــه (صباحك اشطة يا أستاذ) ردد تلك الكلمات بصوته الغليظ، بينما يتطلع في وجهي مبتسماً ثم حشر الجنيه في جيب مريلته البيضاء التي تستطيع من خلال البقع المنتشرة عليها أن تخمـــن جميـــع أنـــواع المشروبات المتوفرة بالمكان، احتسيت رشفتين سريعتين من كـــوب الشاي، وتظاهرت بالنظر في ساعة يدي مرة أخـــرى، وخرجـــت سريعاً إلى الميدان طارحاً عن أنفي دخان الشيشة، ثم انزويـــت إلى شارع طلعت حرب حيث تقع العمارة القديمة التي تحوي مكتبي في طابقها السادس، وقفت على رأس الشارع، وأخذت أتأمل لوحات الإعلانات المضيئة، وواجهات مكاتب الطيران الفخمة، والمطـــاعم الأمريكية اللعينة، وبدأت الهواجس تنقر رأسي المتخم بحلم انقضى، حتى أراد أن ينطلق مني كقصيدة تمردت على شاعر ضاق به الخناق

إلى مقهى في زقاق داخل زقاق في شارع منسي ليلقي قصيدته على الفقراء والمساكين دون أن يجد من ينتبه إليه، أو يسمعه للحظة واحدة، فينهي ليلته ويمضي دون أن يكون قد حرك ساكناً-فلماذا نهرب من أوطاننا إذن؟ ثم نعود إليها محشورين في صناديق خشبية لندفن في أرض هجرناها وتبرأنا منها، وكأن موعدنا معها انحصر في العودة بالموت_آه_ لو أنا بمكانك يا أرض لكنت لفظت كل جسد خرج عنك وارتد إليك بلا روح. استدرت ناحية الميدان ومددت بصري إلى المبنى الكبير لجامعة الدول العربية فرأيته يحاول الخروج من رحم الضباب ليلتقط أنفاسه، فأخذتني رغبة في عبور الشارع لأمد له يدي، وأسحبه إلى تلك الحياة الواسعة التي تدور بعنف من حولنا، لكنني أفقت على صافرة عسكري المرور الذي يقف حاملاً كرشه عند مفترق الطرق المتقاطعة، فأضحكتني حماسته المنتفخة، وتفانيه العظيم في العمل بشارع شبه خال، هززت رأسي وانطلقت بزفرة ساخرة ثم عدت باستدارتي إلى الشارع، ومضيت في طريقي.

وقفت أمام صندوق بريدي بمدخل العمارة و لم أك أنوي فتحه أبداً لولا أن أظرف الرسائل الأخيرة كانت بارزة من فتحته بشكل لافت؛ فخشيت أن تقع رسالة في يد شخص ما فيسترزق منها على حسابي، فما كان مني إلا أن أخذت قراراً متثاقلاً بفتحه على أن ألقي بجميع ما يحويه من رسائل في القمامة لعلمي المسبق بما يريد أن يوصله إلي المرسل، فإما شكر وتقدير ساذج، أو لوم ونصائح

كنصائح مدرستي البلهاء، أو شتائم وتهديدات مـــضحكة بالقتـــل، أخرجت ميدالية مفاتيحي وأخذت أجرب.. الأول.. الثاني.. الثالث انفتح الصندوق، مددت يدي داخله وقبضت على كمية كبيرة من الرسائل المتراكمة لإلقائها بالقمامة بعد تمزيقها لإخفاء معالمهـــا- هكذا كنت أكيد في نفسي--لكن اصطدمت يدي بمظروف أصـــفر يحوي داخله شيئاً صلباً توقعت أن يكون ملفاً ورقيـــاً أو كتابـــاً، فتركت كل ما قبضت عليه من رسائل أخرى، وأخذت أقـــرأ مـــا كتب على ظهره بخط اليد بعد أن جذبته من وسط الرسائل العالقة (فتحي غانم /جريدة الجمهورية/للأهمية)، وقفت شارداً للحظـــات وأنا أنظر لضوء المصباح الخافت محاولاً استحضار ذلك الاسم فلـــم يكن غريباً عليّ سماعه، طويت الصندوق خلفي مفتوحاً عن آخره، ودخلت المصعد حاملاً المظروف بكلتا يدي دون أن أكترث بضغط زر معين يصعد بي إلى مكتبي بالطابق السادس، فسرحت أصـــابعي باللوحة المضيئة تدوس الزر تلو الآخر ..

لم أك أفكر في الزواج يوما ما، ورغم ذلك تزوجت أماني ابنـــة عمتي فور تخرجي في الجامعة، فكان زواجاً من أجل الزواج لا مـــن أجل شيء آخر، ففرضت عليّ التظاهر بالحب، ثم قبلت العيش مع رجل وجدته في طريقها، فكنت مجرد ذكر رضي به أهلها فرضيت هي عنه، وكأن الحياة تنقلب على أعقابها كل يوم، ثم تعود بنا مـــن حيث بدأنا دون أن نتعلم شيئاً، أو نعي الدرس جيداً، فمأســـاة أبي

وزواجه من أمي تتوالى لأرثها أنا دون أن أعي أن الحكاية القديمة التي حرم جدي التغني بها في بيتنا القديم، سيعاد سردها هنا من جديد، لكن الزمن لا يعلق بالأماكن بل يغير منها ويرحل هو بعد أن ينفض غباره على كل شيء، وإذا كان أبي لم يفكر في التمرد يوماً على ما ألم به من ضياع، فلا يعني ذلك أنني سأرث هذا الصمت، بل سأصرخ وأصرخ، وأقول لا ستخرج مع كل أنفاسي حتى وإن لم ترتد إليّ سأقول لا.. أجل سأتزوج سحر.. سأتزوجها، وآن لي أن أدافع عنها، وأردها إلى بيتها الذي طردت منه بلا رحمة طفلة صغيرة تحمل شرائطها الحمراء إلى أرض بلا زرع. هاتفي يدق .. يدق .. يدق.. المصعد يتوقف.. يصعد.. يتوقف.. يصعد .. يدق .. قلبي يدق.. توقف .. توقف المصعد، انفتح الباب ..

جلست على مقعد تحت الضوء المتسرب من الشباك الزجاجي بغرفة المكتب، كنت قد أنهيت محادثة باردة مع زوجتي التي استيقظت تبحث عني في فراشي فوجدته خالياً إلا من بعض أنفاس مرتجة تتناثر هنا وهناك، انطلقت بضحكة مبتورة بعد أن تخيلت المشهد كاملاً (شيء غريب .. دي أول مرة تتصل تطمن علينا!) استعدت الضحكة ذاتها مع دفعة هواء خرجت من فمي، فانتبهت إلى المظروف الأصفر الذي كنت مازلت قابضاً عليه بكلتي يدي (فتحي غانم/جريدة الجمهورية/للأهمية) قرأت تلك الكلمات بصوت مسموع، ثم نهضت من مقعدي وجلست خلف المكتب، فتحت

المظروف وأخرجت منه كتاباً كما توقعت، نظرت للغلاف الـــذي يحوي رجلاً أنيقاً في المقدمة وخلفه يكمن صراع داخل زنزانة مغلقة ينفذ منها رأس صبي صغير (حكاية تو ؟؟!) هكذا قـــرأت العنـــوان طارحاً السؤال على نفسي، رسمت ابتسامة خفيفـــة، وبـــدأت في تصفح الكتاب لكني تفاجأت بأن ورقة صغيرة تقفـــز مـــن بـــين صفحاته لتستقر أمامي (ليس من حقك!) تلك هي الرســـالة إذن، فشعرت أني قد انزلقت في حفرة جليدية تجمـــدت فيهـــا دمـــائي وتكسرت شراييني، ثم بادرتني رغبة أخرى في تكسير كـــل شـــيء حولي، لكن وقعت عيني على غلاف الكتـــاب فهـــدأت، حملـــت الكتاب وأسندت رأسي للخلف وعدت للقراءة ..

(وجاء صوته معتذرا.. وهو يجرى.

عندي موعد هام في فندق فلسطين)

أتت النهاية من حيث لا أشتهي، فرحت أبحث عني في مكـــان ظننت أنه لا يسعني، فوجدت نفسي ضئيلاً جداً، صغيراً جداً بحجم ميكروب انفلت من أنف مريض، وذهب هباء في الهواء ،نظـــرت لمكتبتي حيث تقبع كتب القوانين الرحيمـــة والمراجـــع الـــضخمة، وقذفت الكتاب بكل قوة في وجهها (مكنش لازم أقرا الروايـــة دي أبداً)، لكن دموعي كانت أقرب إليّ من أي غضب أهوج، نهضت من مكاني أزحت الستائر عن الشباك لتدخل الشمس، وانتابتني رغبة حثيثة لإعادة قراءة الرواية مرة أخرى، أو مرات ومرات، بحثت عنها

بين كتبي، تحت المكتب والمقاعد، في الأركان وخلف الباب، أعدت البحث عشرات المرات لكن لا أثر لها، فقط كانت تلك الورقة الصغيرة تحاصرني في كل مكان (ليس من حقك!)، فبرقت أمامي فكرة مقابلته .. (فتحي غانم) بت أتذكر الاسم جيداً كما أتذكر اسمي ..

سمعت الباب الخارجي ينفتح ببطء شديد، فتوقعت أن يكون (عم مصطفى) فراش المكتب، فأتى صوته مرتفعاً من الصالة بعد دخوله (مين هنا؟!) فأجبته بلهجة مطمئنة لإعلامه بوجودي، صمت قليلاً ثم سمعته يتمتم ببضعة كلمات غير مفهومة، لحظات مرت هادئة بعدها دخل بفنجان القهوة (خير يا أستاذ مش عوايدك تيجي بدري كده، هو النهاردا فيه محكمة ولا ايه؟!)، لم ينتظر رداً وانصرف إلى الخارج، كنت أفكر في سماع صوت فيروز مع رشفات القهوة المرة، أو الاستماع لبرامج الراديو الصباحية، أو العودة إلى البيت، والدخول في نوم عميق، أهرب به من أحداث الرواية المختفية التي ماتزال ترتفع بذهني، فشعرت باختناق لشعوري بذنب ما غائر في نفسي أعانده بكل قوة، وأتحدى وجوده داخلي، فانتفضت غاضباً (وهي؟ فين راح حقها..حقوقنا كلنا فين..فين؟؟) أمسكت بالورقة الصغيرة وأطبقت عليها بيدي ثم صفعتها بصندوق القمامة، وأنا أصرخ (ده حقنا كلنا غصب عن أي حد..؟!)، في الوقت ذاته دخل الفراش حاملاً بين يديه كمية كبيرة من أظرف

الرسائل، ثم تحدث مبتسماً وكأنه أتى بذنب ضخم من ذيله (وأنا جاي شفت الصندوق مفتوح والجوابات دي لاقيتها فيه خفت لولد ابن حرام يلطشها) حدقت في وجهه كاظماً غيظي، مددت يـدي إليه وحملتها عنه، ثم طرحتها في صندوق القمامة (خد الزبالـة دي احرقها بره يا عم مصطفى) فوقف مذهولاً حتى كـدت انفجـر ضاحكاً عندما شاهدت خيبة الأمل التي حطت على وجهه، وهـو يحمل الصندوق منصرفاً إلى الخارج .. أمسكت بفنجـان القهـوة، وسحبت منه رشفتي الأولى شارداً في أشياء كثيرة بـدت أمـامي متداخلة ..

-٢-

مانشيت أسود (Bold)

(لم أعد طفلة صغيرة لأعاقب..الآن أنا كبيرة جداً) ١-٢

لاأعلم لماذا تضعون قضية الوطن العربي في رقبتي، في حين أن هناك من أجرم في حقنا جميعاً ويعيش الآن حراً معززاً مكرماً، أما أنا فقد وجب علي العقاب، فعندما قبلت ترجمة مؤلفاتي إلى العبرية لم يخطر ببالي للحظة واحدة أنني ارتكبت ذنباً عظيماً في حق وطني الرائع الكبير الضخم، فقناعتي أن الكلمة لا جنس لها ولا وطن بل هي تنطلق منا في فضاءات مفتوحة، لكن ما أذهلني قيام القيامة وكأني الذنب الأخير الذي هبط على أرضنا العربية، أين كانوا هؤلاء الذين يطالبون بسحق هويتي عندما خرج أبي من منزلنا ببورسعيد يبحث عن مأوى بعد هزيمة مخزية (النكسة بالمعنى اللطيف)، وهجرنا جميعاً أوطاننا الصغيرة ليذلنا خلق الله في بلاد الله، فولدت أنا على أطلال الأسطورة المقدسة التي سقطت سهواً في ليلة ظلماء، هدم بيتنا .. هدمت عائلتي .. ومات أبي غريباً.. وهدمت أنا في وطن أراد أهله مني كل شيء حتى لحمي ودمائي، فطردنا ألف مرة من ألف بيت، وذنبنا الوحيد أن أمي كانت جميلة جداً، فتزوجت أمي مرات ومرات وضاجعني أزواجها مرات ومرات، وكأنهم شياطين مستنسخة من شيطان واحد (لو نطقت بكلمة هنطردك انت وامك واخواتك في الشارع) وتزوجت أنا من رجل

أبله لم يضاجعني أبداً، بل ظل يحشو رأسه في الفراش ويبكي، فلم أشعر به رجلاً يوماً ما لأحتمي به بل كان ذلاً جديداً أضيف إلى صفحات انكساري، ورغم ذلك قبلت به كي أعيش .. فقط أعيش -ضل راجل ولا ضل حيطة- لكني لم أسلم من تلك الأنامل الملساء التي كانت تمتد إليّ من خلف فراشي حتى انصعت لها -أنا بشر- فاكتوى جسدي بشراهتها التي لم ترحمني فقررت أن أكون إنسانة أخرى غير تلك الطفلة الطريدة التي كانت تعاقبها أمها بدموع الشموع الملتهبة إذا ارتكبت خطأ ما، فتتبخر على جلدي وتذوب دموعي في تابوت مفتوح ينتظرني- لم أكن أتخيل أن التلصص من فتحة باب غرفتها خطأ فادح - حتى رأيتها تتلوى في أحضان ذكورها وتصرخ شبقاً كما أصرخ أنا في وجه الحياة بأن ترفع يدها عني، فأيقنت أن للأخطاء لذة تماماً كلذة الجسد، فكان يجب أن أتحور لأحمي نفسي بعد أن فقدت كل سبل الأمان، فتمردت على كل شيء، ولم أقتنع إلا بهواجسي فقط، فكانت ملاذي الأول والأخير، جاهدت كثيراً كي أتعلم وأدخل الجامعة في حين أن أمي كانت تحبط من عزيمتي لأنها فقدت كل طموح يمكن أن تحلم به، لكن إصراري كان أقوى من أي إحباط جاء ليأكلني، فعملت خادمة بالبيوت، وبائعة في محلات الملابس وأدوات التجميل، ونادلة في كوفي شوب وبار، وغاسلة صحون بأحد الفنادق الفارهة، وأحياناً (Room service) إذا لزم الأمر- أعلم جيداً أن هناك من سيظن أنني أحكي فيلماً عربياً طويلاً-

لكنها حقاً حقيقتي التي لا مفر منها، ولست ملزمة أن أسردها أو أدافع بها عن نفسي لأنني لست متهمة، ولكني أردت أن أضع هؤلاء أمام وجوههم ليروني جيداً، فأنا عذراء سفكت دماؤها، وامرأة أعادت جمع نفسها حتى استطعت حقن شراييني بدماء أخرى، في مكان آخر، بلغة أخرى، بعد أن باعني أهلي وبعت كل شيء، وأصبحت ابنة لكل وطن يشعرني بوجودي وكياني لا مجرد روح تسير على الرصيف مع ملايين البشر، تقطف بعض الأنفاس لتعيش، وتستعير بعض السنتيمترات لتتحرك، وتنظر للقمة العيش من بعيد وتركض لتحظى بها، وعندما تصل إليها تموت، وأنا لا أريد أن أموت مقهورة، والآن هم يلقون عليّ تهمة الخيانة العظمى لأنني وضعت يدي بيد اليهود قاتلي الأطفال وترجمت مؤلفاتي إلى لغتهم باعتباري منصاعة للتطبيع، الأمر مضحك حقاً- هل الترجمة تطبيع؟!- فقد ترجمت أعمال يوسف إدريس ومحمود درويش وثلاثية محفوظ للعبرية، واستقبل محفوظ مترجمه الاسرائيلي (ساسون سوميخ) في منزله عدة مرات ولم يتحرك أحد ولم يتهم أحد بالخيانة العظمى، كما اتهمت أنا، بالرغم من أن (ساسون) هو نفسه الذي ترجم مؤلفاتي، فمن الواضح أنهم نسوا تلك المعاهدة الفاشلة التي وقعها السادات مع الإسرائيليين بمباركة الأمريكان، نسوا الشوارع والفنادق والمنتجعات التي تعج بهم في سيناء، والغردقة، وشرم الشيخ، نسوا نجمة داود التي ترفرف في سماء القاهرة، نسوا معبر رفح وتلك المصيدة الكبرى التي شاركوا في صناعتها لاعتقال

الشعب الفلسطيني بعد اتفاقية (أوسلو)، نسوا مصانع الطوب المصرية التي ساهمت في بناء المستوطنات الإسرائيلية في القدس، نسوا قضية تصدير الغاز الذي يدفئ تل أبيب، نسوا دماء أسراهم وشهداء الحروب، نسوا أن اسرائيل أصبحت واقعاً لا مفر منه، نسوا أنفسهم تماماً، وفقط تذكروا أني خائنة.. أقول لهم جميعاً ابحثوا عن الخائن وستجدونه بينكم .. وعاقبوه، أما أنا فلم أعد طفلة صغيرة لأعاقب، الآن أنا كبيرة جداً.

-يتبع-

د.سحر شاهين

حينما انتهيت من قراءة المقال، نظر لي أبي وفرك حبات مسبحته بعصبية (ايه رأيك في الكلام الفارغ المكتوب ده يا يوسف؟!) طويت الجريدة وصمت قليلاً لأفكر في رد ما، فما كتبته سحر لم يترك لي ثغرة واحدة أنفذ منها، فإذا خلصت من قضية التطبيع، سأقع في قضية الأخلاق والقيم والمجتمع الطاهر، وإذا خلصت من قضية الأخلاق سأقع مع الحكومة، فما كان مني إلا اللعب على هذا الوتر، فأجبته على استحياء (عندها حق ..الحكومة دي هي سبب ضياعنا كلنا)، فرفع وجهه في وجهي ثم قال بحدة موجهاً سبابته نحوي (اسمع يا ابني هي فاكره إنها بالكلمتين دول هتضحك علينا؟!.. دي قضية وطن فاهم يعني ايه وطن؟! .. دافع عنها زي ما تحب ده شغلك .. لكن يوم ما هتخسر مفيش حد هيرحمك ولا

هيرحمها) لم أستطع الرد ونظرت لجدتي فاطمة التي وقفت على باب غرفتها عندما سمعت صوت أبي يرتفع، فاستأذنت فوراً للخروج.. أغلقت الباب خلفي ووقفت كمن يكتم تأوهاته مـــن ألم شـــديد، جذبت نفساً طويلاً وضغطت زر المصعد ليقلني إلى شقتي بالطـــابق العلوي..

قبلت ابني ياسين وربت على ظهره عندما انفتح الباب ورأيتـــه أمامي، فركض للداخل كي يبلغ أمه بحضوري (بابا جه يا مامـــا) خرجت أمامي من المطبخ ودون أي تعقيب سألتني (الغدا جـــاهز.. هتتغدا دلوقت ؟) فابتسمت لها وهززت رأسي بالموافقة، ثم دخلت إلى غرفة نومي لأخلع ملابسي، لكني تفاجأت بوجود الرواية ملقاة على السرير، ضغطت بأصابعي علـــى جبـــهتي وأخـــذت أدور في مكاني، ثم غادرت الغرفة سريعاً وأنا أنادي بـــأعلى صـــوتي علـــى زوجتي فخرجت مفزوعة (فيه ايه خير؟) فأشرت ناحية غرفة نومي طارحاً السؤال (مين الي جاب الكتاب ده هنا؟)، فأجابت مستغربة (كتاب ايه؟!) سحبتها خلفي إلى الدخل (الكتاب ده ؟!) ســـقطت يدي..حتى كدت أسقط معها عندما رأيت السرير خاليـــاً تمامـــاً، نظرت إليها ثم ضغطت بأصابعي على جبهتي مرة أخرى وبلهجـــة متراجعة (مفيش خلاص ..أنا بس مرهق شوية ومحتاج انام) فردت مشفقة (يعني مش هتتغدى معانا؟)، تسمرت مكاني و لم أنبس بكلمة واحدة، و لم أسمع حديثها حتى خرجت هـــي، أغلقـــت البـــاب،

وأكملت خلع ملابسي، أطفأت الأنوار ثم استلقيت على سـريري بجسد يرتجف ..هل شبح هو أم أنها تلك الحقيقة التي أؤمـن بهـا؟ ولكني أصر على خداعها بتمردي، فجاءت تطاردني حتى بفراشي؟ كان كل شيء يطاردني في تلك اللحظة، توسلات أمي، ووجه أبي الغاضب،وصمت جدتي فاطمة، وضـجيج الـشوارع والمقـاهي والناس، وصندوق البريد، والرسائل، وعم مصطفى فراش المكتـب الذي طالما ردد على مسامعي (أنا الي مربيك يـا وليـدي) حـتى حضرتني حكاية الصياد الهندي، وابنته التي قرأها عليّ جـدي مـن كتابه القديم لكني أبداً لن أمزق الشبكة ليعود السمك إلى الماء مثلما فعل هو، لأنني لا أندم أبداً على شيء فعلته، وسأسـتمر في جمـع صيدي الحلال حتى آخر رمق، قاطعني صـوت الهـاتف المحمـول فمددت يدي وجذبته من على (الكومودينو)، كان اسمها يلمـع في الظلام الحالك (سحر شاهين) فحولت الهاتف إلى الوضع الصامت، وأعدته إلى مكانه، ثم أدرت ظهري مستغرقاً في النوم ..

هبطت من سيارتي، ووقفت أمام بـاب الجريـدة متـردداً، أو مرتبكاً، بل ربما كنت خائفاً كخوفي من الظلام، فالخوف دائما مـا يجبرني على فعل أشياء أكبر بكثير من التفكير في ارتدادها، كجندي جبان أراد أن يؤنس نفسه في الظلام فأطلق رصاصة على جدار من فولاذ دون أن يعلم أنها سترتد إلى قلبه وتقتله، لكن فضولي كـان أقوى بكثير من أي خوف أو ضلالات لأشباح مندثرة، فأيقنت أن

ما يدفعني إلى هنا هو الرهان على نفسي التي تتزعني لأحـط علـى تلك الأرض، أو تقذفني بعيداً إلى أرض أخرى أبـني فيهـا بيتـاً، وحلماً، وإنساناً يشبهني، فظل قلبي يدق؛ رعباً.. وجعـاً.. ألمـاً.. وأشياء أخرى أشعرها، أو لا أشعرها لكنها أقـرب إلى المـوت.. اقتربت من الباب الزجاجي، ودفعته إلى الـداخل، فـإذا بموظـف الإستقبال يوقفني (حضرتك عايز مين يا أستاذ؟)، حدقت في وجهه متلجلجاً، فقام من مقعده وأعاد السؤال (حضرتك طالع لمـين يـا أستاذ؟)، فأشرت لأعلى مجيباً بهدوء (طالع للأستاذ فتحـي غـانم) فنظر الموظف لزميله مبتسماً ثم التفت إليّ محتفظاً بشفتيه منفـرجتين (والله سيادتك هو مش موجود) فسألته مستفسراً (هيكون موجود الساعة كام؟) فزاد من انفراج شفتيه ثم أجـابني بلهجـة شـعرتها ساخرة (حضرتك الأستاذ فتحي غانم مات من زمان يافنـدم ..الله يرحمه) نظرت نحو الباب الزجاجي المتأرجح، وفكرت أن أركـض بعيداً عن هذا الجنون، لكني تظاهرت بتماسكي، جف ريقي تمامـاً وتصلبت أحشائي، فطلبت من الموظف كوباً مـن المـاء، غـاب للحظات وعاد به على الفور ربما لأن ملامحـي المهلهلـة كانـت واضحة، فرغت من شرب الجرعة الأخيرة ثم شـكرته، واتجهـت لأقطع المسافة القصيرة بيني وبين الباب بخطى متعثرة، سمعت خلالها حواراً جانبياً بين موظفي الاستقبال (ايه الحكايـة ؟! ده خـامس شخص يسأل عن الأستاذ فتحي غـانم الأسـبوع ده)، تـراءت السيارات المندفعة أمامي من خلف الزجاج كأنها كتل تتوالى مـن

الماضي (كيف قادني الوهم إلى هنا؟؟ وكيف يموت من يكتب لنـــا الحكايات؟ فأصحاب الحكايا لا يقادون إلى قبورهم أبداً!) فخرجت إلى الشارع أبحث عن شيء لا أعلمه..

وسط العائلة أجلس في انتظار العشاء، المذيع يتوســط التلفــاز ويوزع ابتساماته هنا وهناك، عيناه تلتقيان بنا جميعاً فننتبــه لهــا ثم نسلم أنفسنا للزخم، مشاهد الموتى تزين الجدار البعيــد، ووميــض سيارات الإسعاف يبرق كأرواح تمر أمامنا دون أن نشعر، اعتــدنا ذلك حتى أننا لم نعد نشعر، أمسك أبي بالمتحكم، وأخــذ يقلــب القنوات حتى استقر على القناة الأولى التي تبث جلسة من جلسات مجلس الشعب (البرلمان) انتقل إلى المقعد المتاخم للتلفــاز، ووضــع رأسه داخله — لم أهتم كثيراً - كنت في عالم آخر يدور من حولي، وأدور معه وأفكر كيف أتوقف عن حماقتي، تسللت إليّ كلمــات ثرثر بها رجل مزعج (ضرائب/عقارات/فقراء/قرى سياحية رجــال أعمال، ووزير) انتظرت أن تصل مسامعي كلمة (رئيس)، ففي تلك الأماكن لا تصل إلى مسامعنا كلمة (رئيس) أبداً.. صفعتني المطرقة، انتفضت .. انتفض أبي قائلاً (الإخــوان دول نــاويين يخربوهــا) فابتسمت في نفسي لأننا جميعاً نعرف من هــم ســبب الخــراب الحقيقي، لكن الساسة في بلدنا لا يختلفون كثيراً عن مشجعي كــرة القدم، كل ينحاز لفريقه دون أن يرى الفريق الآخــر، شــرد أبي قليلاً.. ثم عاد من وسط الفوضى يسأل عن وليد أخي، أجابته أمي

وهي ترتب طاولة العشاء بأنه مازال في عمله بالمشفى، التفـــت إليّ وهز رأسه بأنفاس غير راضية..

التففنا حول الطاولة الصغيرة لتناول العشاء، تظاهرت بانـــشغالي بمشاهدة التلفاز لأهرب من سؤال توقعت أن يـــتلفظ بـــه أحـــد الجالسين، بينما كنت أشعر بزوجتي تراقب تحركاتي من بعيد وكأنها تريد أن تسألني ملايين الأسئلة، فأردت أن أمتص تلك اللحظـــات قبل أن تنقلب الطاولة على رأسي، فسألتها بتخابث (فين الملـــح؟) فنظرت يميناً ويساراً ثم قامت من مكانها لتحضره من المطبخ، لكـــني لم أعلم أن بغيابها سأتحول للقمة سائغة لجدتي فاطمة التي توقفت عن التقام الطعام لتسألني مؤنبة (أنت لسه بتشوف البت بنت فاتن يـــا يوسف؟) بالطبع هي تقصد سحر، فأجبتها بصوت خفيض أشـــبه بالكذب (لا يا ستي ..من زمان مشفتهاش) فنهضت مـــن مكانهـــا مرتكزة بيدها على كتفي متأوهه (أسمع كلامك أصدقك أشـــوف أمورك أستعجب) رددت هذا المثل وهي تمصمص شفتيها، ومضت في طريقها إلى الحمام، كانت زوجتي قد أحضرت الملح الذي طلبته، فالتقطه من يدها، ونحيته جانباً دون أن أستعمله، تغـــير وجههـــا، فأمسكت بكسرة خبز وعبثت بها في طبق أمامها، ثم تركتـــها مـــن يدها وقفزت قائلة (أنا هاقوم اعمل الـــشاي) نطقتـــها بغـــيظ ثم انصرفت تصارع الخطوات، كانت جدتي فاطمة تتجه إلى غرفتـــها وهي تتمتم بدعاء الوضوء، نهض أبي من مكانه، وبـــدأت أمـــي في

لملمة الأطباق من الطاولة، وبقيت أنا وحيــداً في مقعــدي أنتظــر عودهم ..

في شقتي بالدور العلوي جلس ابني ياسين يبني بيتاً من المكعبات، كان يتحدث إلى أشخاص من نسج الخيــال، ويــصدر أصــواتاً لحيوانات مفترسة، ولطائرات معادية تحلق هنا وهناك، حتى أسقطت قنابلها على بيته .. أطاح بالبيت وراح يتململ، فحملته أمه لينام في فراشه (تصبح على خير يا بابا) هي من حرضته هامسة في أذنه على قولها، عدت وحيداً في مقعدي، نظرت لساعة الحائط، وذهبت إلى الطفل الذي سرق النقود من حصالة أخيه ليدفنها ببــستان البيــت ليصير لصاً يعاقبه أبوه بتناول طعامه وحيداً في طبق ملعون، وتهــدده أمه بنار الله —انزلقت دموعي- وقفت زوجتي أمامي في ذهول (انت بتبكي يا يوسف؟!) مسحت دموعي دون أن أعلق (بتبكي ليه يــا يوسف؟!) لم أعلق.. انسحبتْ إلى غرفة النوم، فأعدت النظر لساعة الحائط، ثم لحقت بها إلى هناك، رأيتها تمشط شعرها أمــام المــرآة، فحدقت في وجهها طويلاً ثم استلقيت على السرير، انتــهت مــن زينتها وأطفأت الأنوار، واستلقت إلى جواري، فردت كفها علــى صدري وأخذت تربت عليه بأصابعها.. فلم يكن أمامي خيار آخر، مرت اللحظات في أعماقي وكأنها حلم قصير جاءني على اســتحياء وانصرف دون أن أذكره، انتهى كل شيء في تلك اللحظة، فأدرت ظهري لها وخلدت للنوم ..

فزعت على ضجة وزجاج يتكسر، كان صوتاً يعلـــو ويعلـــو، يصعد من أسفل ليتخم السكون الهارب من صخب النهار، أزحت الغطاء وارتديت (الروب) على عجل، وأخذت أقترب.. الـــصوت يقترب، والدقات تعلو بغباء، لم أنتظر المصعد ليأتي، فهبطت الدرج بقفزات متتالية، اللغط يزداد، يعلو الصوت، تحتد الـــدقات (مـــين بيدق الباب ؟؟ طيب طيب؟) لقد كـــان صـــوت أبي، الأصـــوات تتداخل، تختلط؛ أبي، أمي، أخي، وجدتي، يتكرر الصوت (مـــين؟ مين بيدق الباب بالشكل ده؟) وقفت على الدرج أمام ضابط أمـــن الدولة ورفاقه وكأن أصابني الشلل، فابتلعهم الباب بمجرد أن أزاحه أبي لهم، أراد أن يستفسر عن سبب مجيئهم، طرح علـــيهم أســـئلة كثيرة،كلمات كثيرة، جملا كثيرة ولكن لا إجابة، كان الـــضابط لا يرى أي إنسان آخر إلا أخي، فأشار إليه بحزم (انت وليد رشاد ؟) فأجاب دون تردد (أيوة أنا وليد) فقاموا بتفتيش كل ركن بالمترل، الأدراج، الدواليب، الحقائب،لم يرحموا أي شيء، لم يرحمونا.. فقط هم كجراد يعرف كيف ينتشر ليأكل ويتخم بطنه، أفقـــت مـــن صدمتي وقررت التدخل طارحاً عليه السؤال المضحك (معـــاك إذن نيابة؟) فرد واثقاً (معايا قانون الطوارئ يا حبيبي) جرجـــروا أخـــي الذي كان ينظر إليّ مستنجداً، واستولوا على كل ورقـــة وكتـــاب بالمترل حتى أن كتب ابني ياسين لم تسلم منهم، فقمـــت بتهديـــد الضابط ببعض كلمات حفظتها من كتب القوانين البراقة بعـــد أن رفض مرافقتي له كمحام، فابتسم ساخراً (ده أمر اعتقال يا أستاذ..

ورا الشمس مفيش محامين) فهممت لتخليص أخي من يده بالقوة؛ فترع مسدسه من تحت إبطه، وأشـــهره في وجهـــي، فجـــذبني أبي صارخاً (سيبه يا يوسف أنا هعرف إزاي أرجعه) رحلوا عنا لكنهم نسوا أن يقبضوا على أنفاسي الثائرة، ودموع أمي، ودعاء جـــدتي فاطمة بانتقام الله ..

كانت زوجتي قد استيقظت ووقفت تكتز دموعها، وتربت على كتف أمي التي جلست منهارة (كان مالنا ومال الإخوان دول يـــا ربي؟..ياترى هيعملوا فيك ايه يا ابني؟) وضع أبي كلتا يديه علـــى رأسه وأخذ يفكر، تطلع في ساعته، أمسك بدفتر الهواتف الخـــاص به، ثم تطلع في ساعته مرة أخرى، ثم جذب سماعة الهاتف بتثاقـــل، وأخذ يتحدث إلى العقيد (س)، واللواء (ص)، و (فـــلان) عـــضو مجلس الشعب، و(علان) قيادي بالحزب .. وضع سماعة الهـــاتف ثم تنهد طويلاً، وقام إلى غرفته يجر اليأس من خلفه، لقد أدرك أخيراً أنه لم يعد يجلس تحت قبة البرلمان، وأدرك أخيراً أن حزبه لا يمكـــن أن يضم عضواً شارداً.. وأدرك أخيراً أن حكومته لم تعد تحمي بيته...

أنهى مصطفى تنظيف مكتبي، وحمل فنجان القهوة البارد وخرج في صمت، كنت أبحث عن شيء ما بين الأوراق المتراكمة، لكـــني دائما أنسى ما أبحث عنه قبل العثور عليه، شعرت بضيق، فقمـــت بضغط زر (Intercom) لاستدعاء السكرتيرة، سألتها عدة أسئلة اعتيادية ثم طلبت منها جمع كل ما يرد في الصحف من مقـــالات،

وأخبار عن قضية سحر شاهين، وإطلاعي عليها يوميـــاً، فقامـــت بتدوين ما طلبت في دفتر صغير كانت تحمله في يدها، ثم أزاحـــت نظارتها فوق أنفها وبلهجة جادة تساءلت (تـــؤمر بـــشيء تـــاني؟) حدقت في وجهها للحظات مطوحاً رأسي يميناً فيـــساراً، وعـــدت للانشغال بأوراقي المتناثرة بعد أن أبديت شكري، لكن قبل أن تهم بالخروج رفعت طرف عيني لتأمل ساقيها العـــاريتين، الآن فقـــط تذكرت ما أبحث عنه —الرواية!!-أين ذهبت يا ترى؟ ومن دسها في صندوق بريدي ؟! هل الموتى يرسلون الخطابات؟! طرحت تلـــك الأسئلة على نفسي وأنا أرتب مكتبتي المهملة، لكن عقلي لم يحتمل فتوقف تماماً عن التفكير، وكأنه أراد أن يهرب معي بعيداً عن هذا الجنون.. أقصد؟؟.. لا أقصد شيئاً، ارتميت على مقعدي لاهثاً بعـــد أن تحررت من رابطة عنقي، أغمضت عيني وآثرت العيش في عـــالم آخر لا يراه غيري، أشبه بتلك النجوم التي نراها نهاراً في السماء ..

دخل مصطفى حاملاً صينية عليها فنجان قهوة جديد، كنـــت أشعر به وهو ينظر إليّ متحسراً على حالي، فمد يده على صـــدري وبلطف أيقظني (مالك يا ولدي؟) فتحت عيني وحدقت في وجهـــه الأسمر محاولاً استيعاب نور المصباح، رفعت يدي لأعلـــى لحجـــب الأشعة التي شقت عيني وسألته مستغرباً (فيه حاجة يا عم مصطفى) وضع فنجان القهوة على المكتب ثم جلس في المقعد المواجه لي (اسمع يا ولدي أنا إلي مربيك وعارفك كيف لما بتركب راســـك ..بـــس

عايز أقول لك كلمتين: عندنا بالصعيد يا ولدي البت إلي تخرج عن طوع أهلها بينكتب عليها الموت) فقاطعته قبل أن يكمل حديثه، وبلهجة ساخرة تساءلت (أهلها؟! وهمه فين أهلها يا عم مصطفى؟) فأجاب دون تردد (كلنا أهلها يا ولدي) بغيظ سألته (وكنت فين انت يوم ما طردوها هي وأمها واخواتها من البلد زي الكلاب؟) أحنى رأسه على صدره باحثاً عن إجابة (كنت غريب عنكم ومقدرتش أعمل حاجة..والغريب قليل الحيلة يا ولدي) احتفظت بلهجتي الغاضبة (انت نفسك هاجرت وعشت غريب هنا وهناك بعيد عن أهلك وناسك) زاد من انحناءة رأسه ناظراً للأرض (لقمة العيش يا ولدي) فضربت كف يدي بقوة على المسند الخشبي (وهي كمان الفقر والجوع نهشوها هي وأمها واخواتها) حاول أن يسترسل في الحديث، فقاطعته بحدة (عم مصطفى لو سمحت متتدخلش في شغلي تاني) فصمت قليلاً ونهض من مكانه، ثم وقف على الباب وبلهجة حزينة (عندك حق يا ولدي أنا غلطان. لكن صدقني مفيش حد بيقدر يهرب من أرضه، لأن الأرض زي القدر.. مكتوبة علينا) أغلق الباب خلفه، فعدت وحيداً كما أنا..

في مقهى ريش كنت أنتظر قدومها، هي المرة الأولى التي أجلس فيها بتلك المقهى رغم مروري جوارها مرات ومرات وأنا في الطريق إلى مكتبي، لكني لم أفكر يوماً في خوض تجربة الجلـــوس هنـــا -لا أعرف لمَ؟!- أخذت أتأمل الصور القديمة للأدباء والفنانيين المعلقـــة على الجدران، فشعرت أنني في معقل الزمن الجميل، نظـــرت لمـــن يجلسون على الطاولات المتراصة من حولي فكان إحـــساسي بهـــم كإحساسي بهؤلاء الذين يحملون الحكايـــات في صـــناديق الـــدنيا ويطوفون بها القرى والنجوع، اقترب مني (الجرســـون) مبتـــسماً، فوضعت عيني على أزرار ملابسه البسيطة، وطلبت منه كوباً مـــن عصير الليمون لشعوري الدائم بجفاف في الحلق، فهز رأسه بالموافقة، وظل محتفظاً بابتسامته حتى اختفى وراء الستار، نهضت من طاولتي لألقي نظرة على الكتب المتراصة بنظام دقيق، فكانت كتبـــا قديمـــة لتوفيق الحكيم، ومحفوظ، والعقاد، وطه حسين وغيرهم ، جـــذبت كتاباً لتوفيق الحكيم يحمل عنوان (عودة الروح) الكتاب الأخـــضر لثورة يوليو وسرعان ما تركته، لم أكن أذكر من تلك الرواية الـــتي أتممت قراءتها بمرحلة الثانوية إلا بطلها (محسن) الذي عاش حـــائراً بين مدينة القاهرة الممتلئة بجنود الإنجليز، وقريته بدمنهور التي كانت تحارب البدو المتربصين لاحتلال أراضيهم، وفي النهاية يعود للقاهرة حيث يقطن مع أعمامه، ويشترك معهم في حب الجـــارة ســـنية ثم

يساقون جميعهم إلى السجن في زنزانة واحدة بعد اشتراكهم في ثورة ١٩١٩ضد الانجليز-كنت ساذجاً جداً - تحدثت إلى نفسي ساخراً.. لم تتأخر سحر عن موعدها بل أنا من حضرت قبل الموعد المحدد بحوالي ساعة تقريباً، جلست في الطاولة بعدما أحضر (الجرسون)كوب الليمون المثلج، عدت لتأمل الجالسين بالطاولات، كان معظمهم من كبار السن، وذوي النظارات السميكة، وفقط قليل من الشباب والبنات، منهم من كان يتحدث مندمجاً في طرح قضية ما، أو سرد حكاية يصغي إليها الآخرون، أما البعض الآخر فجلس صامتاً يتصفح أوراق الجريدة، أو يضع بين يديه كتاباً ما، تقريباً كنت أنا الوحيد من لا يحمل كتاباً أو جريدة، أو أية أوراق، ورغم ذلك لم أكن كائناً غريباً سقط بالمكان، فتعامل معي (الجرسون) كأنه يعرفني منذ سنوات طوال، حتى من يجلس في الطاولة أمامي كان ينظر إليّ وكأنه اعتاد على رؤيتي هنا كل يوم، لذلك كنت أشعر بألفة جعلتني أجلس واثقاً من نفسي، مرتاحاً لكل ما يدور حولي، طلبت من (الجرسون) ثلجاً إضافياً من أجل المساء، ولا أعلم لَم خطرت في بالي فكرة إشعال سيجارة في تلك اللحظة؟؟ رغم أنني لست من المدخنين و لم أحمل في جيبي صندوق سجائر، أو حتى قداحة طوال حياتي، لكنني عدلت عن الفكرة سريعاً بعدما تبادرت إلى ذهني رائحة دخانها المستفز الذي يصيبني باختناق، فآثرت الجلوس صامتاً متظاهراً بالانشغال في متابعة المارة عبر زجاج المقهى..

سمعت قهقهات نسائية تخللتها مزحات كلامية تقترب من مدخل المقهى، اتجهت الأنظار إلى هناك في ترقب للقادم، فظهرت سحر بعدما اندفع الباب إلى الداخل، كانت بصحبتها فتاة نحيفة تتدلى من رقبتها حقيبة (غيتار) سوداء، تطرح شعرها المتموج على كتفيها، فيتناسب مع زركشات فستانها الأزرق القصير.. اقتربا من طاولتي فنهضت من مكاني مرحباً، مدت سحر يدها تصافحني راسمة ابتسامة عريضة على وجهها، ثم أشارت للفتاة بتفاخر (أحب أعرفك بصديقتي إيما شاه من الكويت وعايشة بأمريكا.. مطربة وعازفة غيتار راااائعة)، مدت يدها وصافحتني بترحاب، تبادلت سحر تقديمي إليها ثم احتل كل منا مقعده، بدأت بالكلام مستفسرة عن آخر تطورات الدعوى القضائية التي رفعتها ضد نقيب الصحفيين، ورئيس اتحاد الكتاب لإسقاطهما لعضويتها، فأخبرتها أنه تم تأجيل القضية لحين انتهاء الإجازة القضائية، لكن قبل أن أستطرد في كلامي، اقتحم مجلسنا رجلان، رحبا بها وبصديقتها بحرارة، وقبل أن ينتهيا من الترحيب وتبادل الكلمات عن الأحوال والأخبار، انضم إليهما رجل آخر وفتاة، اتسع المجلس، وتزايد الحضور، كانوا جميعهم ينظرون إليها ولصديقتها كنجمتين من نجمات هوليود، توالت الأسئلة، وبدأ حوار ينشب عن تلك الأحداث الأخيرة التي تلت ترجمة مؤلفاتها إلى العبرية، جلست تائهاً أحرك رأسي باتجاه كل من يتحدث، سمعت أسماء كثيرة، لمؤلفين ومفكرين وكتاب، بجميع اللغات، فكل من يتكلم يستشهد بهم

ويرصع وجهة نظره بعبارات، وأقوال خلابة (وطنية-حرية-ليبرالية-تقدمية وأشياء أخرى) فأحياناً ينقلب الحوار إلى العربية الفصحى، وأحياناً إلى الإنجليزية، وأحياناً يعود إلى العامية، اختلفت اللهجات، والكلمات والأسماء، والوجوه، وماركات السجائر والمشروبات، والزجاجات، لكنهم اتفقوا جميعاً على فكرة واحدة، لم أكن أفهمها أو أهم أرادوا لي ذلك، لكني كنت الوحيد من يفهم سحر جيداً، فلا أحد يهمني سواها، فمن أجلها أتيت إلى هنا، ومن أجلي أتت، فهي لي وحدي وليست لهم، أنا من رآها طفلة صغيرة بشرائطها الحمراء، وعاش براءتها الهاربة من شيطان الولد الماكر، وأنا أول من استمتع بأنفاسها الصغيرة قبل أن ترتشفها الدبابير، لذلك أردت أن أصرخ في وجوههم جميعاً بأن يصمتوا، بأن يتركونا وحدنا.. ويرحلوا..

صمتوا جميعاً حينما أخرجت إيما (الغيتار) من حقيبته السوداء، وبدأت تعزف وتغني بصوت ملائكي، فبدا صوتها كشعاع قمري يصعد إلى السماء ليلمع بأعيننا، كانت تغني قصيدة بالفصحى علمت بعد ذلك أنها جدارية محمود درويش، صفقوا لها، وصفقت معهم منبهراً بصوت أشبه بالحياة الأخرى التي كنت أراها ليلاً تقف على حافة البحر تضيء الظلام، انتهى التصفيق لكن أنغامها لم تنته بل بدأت تنساب تدريجياً من بين أصابعها مرة أخرى، وعاد يرافقها صوتها بروح جديدة، روح أشبه بعطر الليمون الذي كانت ترشه

أمي على ملابسي كل صباح قبل ذهابي إلى المدرسة، أصـــغيت إلى كلمات الأغنية، وحاولت أن أستوعب تلك اللغة التي تطوف حولي كمخلوق غريب، أعرفه تماما، لكني لم أقابله أبداً وجهاً لوجه، هـــو الآن أمامي الآن وجهاً لوجه، يعلو صوتها به، يعلو ويعلو، تدفعـــه نحوي بقوة، فيسحرني، يأسرني، يجذبني، مازال يعلو، يتمايلون معه، يدندنون معها، يسرقوني كما سرقتهم أحلام العباقرة، أردد معهـــم (هافا ناجيلا)...

הבה נגילה	لنفرحن
הבה נגילה	لنفرحن
הבה נגילה ונשמחה	لنفرحن ونسعدن
הבה נרננה	لنغني
הבה נרננה	لنغني
הבה נרננה ונשמחה	لنغني ونسعدن
!עורו, עורו אחים	استفيقوا ..استفيقوا
أيها الإخوان	
עורו אחים בלב שמח	بقلب سعيد
! !עורו אחים، עורו אחים	استفيقوا أيها الإخوان
בלב שמח	بقلب سعيد

صفقوا لها بحرارة، احتفظت بكلتا يدي على الطاولة، وبـــدأت استوعب ما كنت أردده، فشعرت كأنني شربت خمراً، أو واقعـــت امرأة في الحرام، لكني تخطيت ذلك سريعاً فلـــم أرد إفـــساد تلـــك اللحظة بضمير علقه جدي على جدار غرفته مع لوحـــة الفتيـــات العاريات، ثم جاء يسخر مني الآن..

انضم شخص إلى الجلسة قادما من طاولة قريبة، ألقى عليهم تحية المساء، ثم استأذن في سؤال إيما (من فضلك ممكن سؤال؟) فرفعـــت رأسها متأهبة، وحركت كتفيها بحركة خفيفة (أكيد طبعاً) قالتـــها مبتسمة، لكنه لم يبتسم أبداً (سمعتك بتغني بالعبرية..ليـــه؟!) وجـــم الجالسون، وانتشرت همهمات جانبية، نظرت إلـــيهم ثم أجابـــت بلهجة متحدية:

- يا سيدي.. العبرية هي لغة عيسى وموسى .

- ولغة يهود اسرائيل.

- مالي أنا بيهود اسرائيل.

- ألست عربية؟!

- لا.لست عربية ولا أؤمن بالعروبة ولا بأية عصبيات.

- والقضية الفلسطينية (خلاص) ماتت في نظرك؟

- أية قضية فلسطينية؟ هل للفلسطينين قضية؟ ولماذا أنا بالـــذات من يحمل قضيتهم؟، أنا آخر من يفكر في حمل تلـــك القـــضية يـــا

سيدي، فالفلسطينيون عسكروا في بلدنا مع جنود صدام وقتلوا رجالنا واغتصبوا نساءنا.. أنا لا أحمل أية قضايا ولا دخل لي بالسياسة أنا فقط أعزف الموسيقى وأغني للطبيعة والشمس والقمر.

– لنفرض أن كلامك صحيحاً.. لكن القضية هي قضية أرض ومقدسات وهوية، هل الكعبة ملك للسعوديين بل هي ملك لنا جميعاً، كذلك القدس وأرض فلسطين ملك للعرب والمسلمين جميعاً.

– أنا لست مسلمة، وغير مقتنعة بشيء اسمه صواب أو خطأ، فالدين مجرد فكرة أتى بها الأنبياء وانتهت، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالله ليس ملكاً لأحد يا سيدي.

– لاداعي لإقحام الدين في المناقشة، وليس غريباً عليّ أن تقولي ذلك، فمن يغني بلغة اسرائيل يقول أي شيء.

– أنا لا أكره اسرائيل، فهم لم يفعلوا معي شيئاً، لم يغزوا أرضي على الأقل، مضحك جداً أن أجعلك تكره العراق لمجرد أنها غزت الكويت مثلاً، الفلسطينيون يريدون تجنيد العالم، وهم ينعمون بالسفرات، وأفخر العطورات والسيارات، والنساء.. لماذا أنا بالذات من أحمل مشاكلهم؟!..

– حتى لو كان هذا فكرك فهو لك وحدك، و يجب أن تراعي مشاعرنا، فأنت تجلسين في قلب القاهرة وتغنين بالعبرية، وأطفال غزة يقتلون .. وكأنك تباركين الحرب عليهم..

- الأغنية التي سمعتها الآن هي أغنية انسانية جداً ولا دخل لها بالحروب، وأكرر أن العبرية هي لغة كأي لغة تحدث بها عيسى وموسى..

- وتحدث بها من حارب عيسى وموسى..معك أن العبرية لغة كأي لغة، لكنها الآن أصبحت اللغة الرسمية التي تخص إسرائيل وحدها.. أنت بذلك تمينينا .. إذا أردت أن تغني بالعبرية فاذهبي إلى تل أبيب سيسمعونك جيداً، وسيرقصون معك على جماجم أطفال العرب.. أما هنا فلا مكان لأغانيك..

- العرب هم العرب في القاهرة، في الكويت، في كل مكان لا نسمع منهم إلا تهديدات وكلام في كلام .. قل لهم يا عزيزي إن (غيتار) إيما ليس هو من سيحرر فلسطين .

هز رأسه متحسراً، ثم نهض من مقعده، واتجه ناحية الباب مغادراً المقهى، تفوهوا بكلمات كثيرة ساخرة (واضح إنه من اخوانا بتوع الاتحاد الاشتراكي/كان ناقص يدخل علينا رافع علم أخضر بهلال وتلات نجوم/ ده راجل أنتيكة قوي) أشاروا بأيديهم بعلامات الجنون وهم يضحكون، ويطيرون دخان سجائرهم في الهواء..

قبضت على مقود السيارة، وحصرت نظري بين دفتي الطريق الممتد، لم يكن هناك مجال لمراجعة ماحدث بالمقهى، فقط كنت أنظر للقطع الفسفورية المضيئة بأرضية الطريق الأسفلتية، دون أن أجد تفسيراً لذلك، وكأن عقلي تحول لكرة خاوية، مجرد كرة لا أكثر أو

أقل، فيدفعني إلى فعل أشياء أنساق إليها دون أدنى مقاومة، وكـأن هناك من يركل رأسي في كل مكان، فأرتفع وأنخفض، وأصـطدم واتدحرج وأسقط لاهثاً في شباك المرمى.. يـصفقون.. يهللـون.. يصرخون فرحاً.. لكن مَن سقط هو أنا.. من سقط هو ..؟؟ لالا. لا داعي لمعزوفة جديدة.. لا داعي للتصفيق .. شـكراً لكـم.. لا أرغب أن أموت مرة أخرى ..

أطالت النظر في وجهي، وأخذت تتابع حـركتي الآليـة أثنـاء القيادة، كانت تنتظرني لأتحدث، أحرك شفتي بأي شـيء _أعلـم ذلك جيداً_لكني لم أكن أنوي الحديث أبداً، لم أرغـب حـتى في التنفس، فجاء سؤالها ليفسد عليّ متعة السكون (من وقـت مـا خرجنا من الكافية وانت مش بتتكلم ..مالك؟!) لم ألتفت إليهـا، وظللت معلقاً بصري بالطريق (ولا حاجة) فأعادتها إجابتي القاطعة إلى الصمت، حتى جاء صوت إيما من المقعد الخلفي بغناء متقطـع، تدخل إلى أغنية وتخرج من أخرى، والصوت هو الصوت، يجعلـك تقدم على الحياة بكل ما فيها دون ألم، لكنك عندما تفيـق تـرى جسدك كله وقد غمر بالدماء .. تطلعت فيها من المرآة الداخليـة، شردت للحظات ثم ضغطت بإصبعي على زر الراديـو، التقطـت شخصاً يتحدث عن خلفيات تعديل الدستور، والانتخابات الرئاسية وهاجس التوريث، ظل المحاور يلف ويدور بالأسئلة، والآخر يجادل ويصر على رأيه المساند للحكومة، فيبدي المحاور تعجبه من موقفـه

في حين أن شعب مصر يعاني من الجوع والفقر والحرمـــان، لكـــن المنطق الغريب الذي يدلي به المتحدث كان أشبه بالخطب الرسميـــة التي توزع على خطباء المساجد وكأن عبقرياً واحداً فقط هو مـــن يسجل لهم تلك الاسطوانة، قاطعه المحاور بلكنته الـــشامية وأنهـــى المحادثة متحججاً بضيق الوقت، فانفجرت سحر ضاحكة (من عهد أحمس ومينا نارمر والي بيحكمكم لا يمكن يتغير أبـــداً.. يخلـــع أو يموت) التفت إليها مبتسماً، وأغلقت الراديو.. وعاد الـــصمت .. وعادت إيما للغناء من المقعد الخلفي .. رفعت رأسي لأطالع قـــصر البارون الذي ظهر عن يميني، تطلعنا إليه جميعاً حـــتى اختفـــى، و لم يمض وقت طويل حتى توقفت بالسيارة أمام الفندق، مكثنا قلـــيلاً كمن يستريح من سفر مرهق، شكرتني على السهرة اللطيفة، قالتها وهي تربت على قبضة يدي المسندة على ناقل السرعة، ثم فاجـــأتني بقبلة طبعتها على خدي الأيمن، قبل أن تطـــرح البـــاب خلفهـــا، فتسمرت في مقعدي مذهولاً دون أن أنتبه لصديقتها التي كانـــت تلوح لي من بعيد..

انتفضت عندما آتاني صوته من ركن في الظلام، كـــان ينـــاديني باسمي، أو باسم شبيه، لم أستوعب جيداً ما نطق به، غرست قدمي في الأرض وتوقفت، سمعت خطواته تقترب من الخلف، لم أجـــرؤ على الالتفات إليه.. ارتجفت.. خائف حتى الموت، قلـــبي يـــدق.. يدق.. أعجبه ارتعادي، فانفجر ضاحكاً ثم همس في أذني (أحمـــق!!

أنت أحمق!!)، احتفظت بثباتي، فعاد يهمس في أذني مــرة أخــرى (ستحرك قبلتها إلى الجحيم) سرت ارتعاشــة غبيــة في جــسدي، فركضت هارباً نحو النور، ظل يركض خلفي.. يركض.. يركض.. أركض.. أركض، حتى كدت أفقد أنفاسي، أرهقني التعب، لم أعد أحتمل، فارتميت على الأرض، أخذت ألهث.. ألهث بقوة حتى سال العرق من كل جسدي، هدأت حتى انتظمت أنفاسي، ارتفعت قليلاً وحاولت الالتفات إليه بحذر شديد، ألقيت بــصري حــتى نهايــة الشارع المظلم، فلم أعثر على أي شيء إلا الفراغ.. أزحت الغطاء، وأسندت ظهري إلى الوسادة لالتقاط أنفاســي الهاربــة، نظــرت لزوجتي التي تغط في نوم عميق، وغادرت الغرفة متجهاً إلى الحمام، ألقيت برأسي تحت الصنبور وغمرته بالمياه الباردة، حدقت في المرآة طويلاً، ثم قبضت على ماكينة الحلاقة، و لم أتــردد لحظــة في جــز رأسي، فشعرت براحة غريبة

عندما رأيت خصلات شعري وقد تــساقطت تحــت قــدمي الحافيتين ..

-٤-

كنا جميعنا في انتظاره..

لم تتعد مكالمته التلفونية أكثر من دقيقتين عندما أخبر جدتي فاطمة بزيارته؛ سافر خالي منذ خمسة عشر عاماً إلى أمريكا للحصول على درجة الدكتوراه بعدما ضاعت فرصته في التعيين بالجامعة، فترك خلفه وعوداً كثيرة بالعودة، وبأمل الرجوع حاملاً إلينا شهادته الكبيرة، أذكر يوم ودعناه في مطار القاهرة، داعب شعري ونظر إليّ مبتسماً قبل أن يعبر بوابة الدخول، ثم لوح لنا من خلف الحاجز الزجاجي وغاب معهم ..مع الراحلين، فعدنا نحمل في مآقينا الدموع، كنت أشعر أن صديقي لا ينوي الرجوع، شعرت ذلك جيداً.. عندما حدثني ساخطاً من قصائدي وأحلامي، وعشقي لرجل المستحيل، وكأنه أراد أن أتحاشى أحلامه الهاوية على أرض وطن لا تنضج فيه الأحلام فتموت مشوهة، كان هو من اشترى لي كتبي، وتلك الدواوين التي مازلت أحتفظ بها حتى الآن، و هو من عودني على سماع فيروز.. على عشق فيروز، وقراءة الجريدة اليومية، وارتشاف رشفتين من فنجان القهوة وترك الباقي لحامله، لكن قبل أن يرحل اعتذر لي بشدة وطلب مني أن أحرق كل شيء.. أن أنسى كل شيء، وأعيش لنفسي فقط .. لكنني لم أفعل.. لم أقبل اعتذاره أبداً.. في السنة الأولى ظل يتصل بنا كل يوم ينقل لنا أخباره.. في السنة الثانية كان يرسل لنا خطاباً كل شهر، وفي الثالثة

انقطعت أخباره تماماً.. إلا من اتصال وحيد أخبر أبي فيه أنه قد تزوج من فتاة نمساوية.. غضب عليه البيت كله إلا أنا.. وانقطعت أخباره تماماً بعدها لكني كنت أعلم عنه كل شيء .. هو من علمني ذلك عندما وضع يدي على قطع الشطرنج لأول مرة في حياتي...

دق الجرس..

نظر كل واحد منا للآخر، وكأننا ننتظر رجلاً قد مات وانتهى، واليوم عاد إلى الحياة، احتشدنا جميعنا أمام الباب في ترقب إلا جدتي فاطمة هي وحدها التي لم تغادر أبداً غرفتها بهذا اليوم.. فتح أبي الباب ببطء شديد، فإذا برجل علق البياض بفوديه، يرتدي حلة أنيقة سوداء، وإلى جواره طفلان أشقران (حمد لله على السلامة)، ابتسم لأبي.. ابتسمنا له.. مد يده يصافحه.. عانقه.. عانقه بشدة.. وقف أمام أمي صامتاً.. ارتمى في حضنها طويلاً.. اعتصرته بشدة حتى علا صوتها بالنحيب، التفت إليّ والدموع تترقرق في عينيه، أحنيت رأسي، لم أستطع المقاومة فتعلقت برقبته كطفل صغير، وظللت أقبله، وأعانقه بحرارة فكان يربت على جسدي كله (كبرت يا يوسف)، صافح زوجتي وحمل ابني، وسأل عن أخي وليد، سأل عن كل شيء، ثم نادى سائق التاكسي الذي كان يقف بالخارج بأن يدخل الحقائب، وأشار لطفليه (مراد وكريم ولادي)، انحنت عليهما أمي بالقبلات (ماشاء الله.. الله أكبر.. شبهنا قوي يا محمود) كانت عيناه تبحثان عن جدتي برهبة الولد المذنب الذي يخشى

العقاب (فين خالتي؟!)، اتجهنا بأنظارنا صوب غرفتها في صمت، فتقدم نحوها بخطى متباطئة، ارتكز بيده على مقبض الباب.. أطلق زفرة عميقة، ثم اختفى بالداخل، سمعنا صوت جدتي يرتفع؛ غضب.. توبيخ.. عتاب.. بكاء.. انخفض الصوت.. انخفض.. هدأ تماماً.. ثم علت الضحكات.. فعندما تغضب قلوبنا تظن معها أن نهاية العالم ستبدأ من هنا، لكن في النهاية ننسى ونبتسم، ونضحك مع أول لقاء، فالدماء تحن، والأنفاس تمتزج، وتتداخل هالات الأجساد لتحوم حول رحم واحد سقطنا منه جميعاً يوماً ما...

فتح الحقائب ووزع علينا الهدايا، كانت مقاسات ملابسنا قد توقفت في ذهنه عند اللحظة التي رحل فيها، فانقلب الموقف إلى كوميديا تحولت إلى قهقهات بدأتها أنا، ظل يضحك ويعتذر حتى احمر وجهه ودمعت عيناه وكادت تختنق أنفاسه بالسعال (خير اللهم اجعله خير) قالتها أمي وهي تربت على ظهر أخيها، فتوقف عن الضحك، ووجم وجهه، ثم ألقى بجسده على المقعد، مسح وجوهنا جميعاً، وشرد بعيداً، ثم تحدث إلينا وكأنه يقرأ من لوح كتب على الهواء (ضاقت الدنيا في وشي بعد ما ماتت أحلامي قدام عيني وأنا مش عارف أعمل أيه، كنت عاجز حتى عن الدفاع عن نفسي والموظف بيقولي بكل بساطة: شكراً مش عايزين معيدين السنة دي فوت علينا بعد سنة أو سنتين، في اللحظة دي انهار كل شيء كنت عايش عشانه، ومكنتش عارف أروح فين أو أجي منين، حسيت

إني مطرود من الدنيا دي كلها وواقف في الشارع عريان، فكـــان لازم أفكر في السفر، كان لازم أهج من البلد دي، إلي اتحولت لمجرد قبر كبير بنندفن فيه وتندفن معانا أحلامنا البسيطة، كان لازم اتعلق بالقشة.. لكن للأسف اكتشفت إن القشة دي اتحولت لبيت كـــبير احتواني.. وحسسني اني بني آدم .. قولولي كان فيه حل تاني؟؟ كان فيه..؟؟!)

لم ينطق أي منا بكلمة واحدة.. وظلت وجوهنا معلقة بين عينيه المتألمة..

أعدت له أمي غرفة أخي وليد للمبيت، ودخلـــت إلى المطـــبخ لإحضار الأطعمة التي أعدتها خصيصاً من أجله، في حـــين كانـــت تجلس جدتي فاطمة تتحدث مع أحفادها الصغار، وتقـــص علـــيهم تلك الحكايات التي شكلت تمثال الشمع داخلي، فتكومـــت عليـــه عظامي، ولحمي، وصبغته دمائي؛ فكنت أنا.. رجل إذا طلعت عليه الشمس يتهاوى، ويذوب.. كأنه لم يكن.. بت أرى نفسي جيـــداً عندما أنظر لابني وهو يصنع من نفسه بطلاً يقاتل وحوش الأرض، ثم يطير إلى عنان السماء.. فأعيش الرعب ذاته الذي كنت أشـــعره يطاردني طوال حياتي، معلقاً كتميمة أراها تتدلى من عنق شـــبحي الأحمق .. فأقف عاجزاً وأنا أصوب نحوه فوهة بندقيتي الخالية مـــن الطلقات.. أفقت على صرخة جدتي، وهي تضرب بكلتا يديها على صدرها في ذهـــول (ولادك بيرطنـــوا بـــالافرنجي يـــا محمـــود؟؟!

معلمتهمش ولا كلمة عربي؟؟ روح منك لله) نظر إلينـــا ثم طأطـــأ رأسه و لم ينبس بكلمة واحدة...

في مسجد الحسين أنهينا صلاة العصر، وجلـــسنا جـــوار أحـــد الأعمدة الضخمة، طرح أبي عباءته السوداء على كتفيـــه، ولملـــم مسبحته في قبضة يده، ثم تحدث وهو يمشط السقف بنظره والجدران (ممكن حياتك كلها تتغير في لحظة تقضيها هنا) أطرق خالي رأســـه قليلاً ثم ردد بعينين زائغتين (يا ريت حياتنا كلنا تتغير..يـــا ريـــت) شعرت أن كلماته تلك هي رجاء مستحيل، فهو لـــن يـــستطيع أن يحول حياته إلى هنا، ونحن لن نتخلى عن حياتنا ونذهب إلى هناك، فالتغيير الذي يقصده أبي هو شيء آخر يتعلق بالنفس والروح، لكن يبدو أن خالي لم يفهم ذلك جيداً، فهو يضمر في نفسه أمنيات بعيدة ربما تتعلق بنا، لكن لن نصل إليها أبداً يوما ما، ولن يصل هو إلينـــا أبداً إلا إذا مات ودفن في قبورنا، فللموت بهاء آخر، وللتراب فلسفة في العودة ..

اقترح أبي مغادرة المسجد للجلوس على المقهى، فنهـــضنا مـــن أماكننا متوجهين إلى صناديق الأحذية ومن ثم الخروج إلى الحـــي، لكن خالي كان ما يزال يبحث عن حذائه بين الأحذية المتراكمـــة على الأرفف الخشبية، أخذ يتلفت يميناً ويساراً، ويدور حول نفسه حائراً، غريبة تلك الأشياء الصغيرة التي إذا فقدناها نعجز عن التفكير في أي شيء آخر، حتى لو كان أكبر، وأضخم، وأعظم شأناً، فنفقد

توازننا، ونقف مسمرين في انتظار يد تمتد إلينا لتنتشلنا من عبثهـــا..
أخذت أبحث معه في كل مكان حتى قاطعنـــا أبي (الله يجازيـــه الي
سرقها.. روح يا يوسف اشتري جزمة غيرها لخالك بسرعة) وقف
خالي محاولاً استعياب الموقف، لكن في تلـــك اللحظـــة انفلتـــت
الكلمات من فمه بغيظ (بلد حرامية.. أولاد الـــــ...) عـــادا إلى
الداخل بينما كنت أقطع الشارع المـــزدحم للـــدخول إلى شـــارع
(الموسكي) حيث تلك المحالات التجارية التي تعرض بضائعها علـــى
الجانبين، توقفت أمام محل لبيع الأحذية، وقبل أن أقلب نظري بـــين
الأحذية المتراصة تدخل البائع (اتفضل يا أستاذ.. عنـــدنا تـــشكيلة
جديدة هتعجبك أوي) فسألته عن حذاء أسود رجالي قياس "٤٢"،
فصاح في الصبي المنشغل بترتيب صناديق الأحذية داخل المحل (جزمة
بوش مقاس ٤٢ بسرعة يا ابـــني).. (جزمـــة بـــوش؟!) تـــساءلت
مستغرباً، فأجابني بأنها نفس موديل حذاء الصحفي العراقي الـــذي
ألقاه في وجه الرئيس الأمريكي جورج بوش، فانفجرت ضاحكاً ..
كان الصبي قد أحضر المطلوب، ففتحت الصندوق بشغف لأطـــالع
هذا الحذاء العجيب الذي قامت الدنيا كلها من أجلـــه و لم تقعـــد،
أخذت أقلبه في يدي حـــتى وقعـــت عـــيني علـــى (Made in
Chaina) هززت رأسي مبتسماً (جزمة بوش.. وصيني كمان ؟!)
دفعت ثمنه للتاجر مع بقشيش معتبر للصبي.. في طريق العودة كنت
أفكر كيف يمكن أن نختصر مآزقنا الضخمة بكل بساطة في صندوق
صغير قد يحوي حذاء كهذا، بعيداً عن جنات الساسة الكبار، أتاني

صياح البقال الذي وقف يوماً في وسط الشارع يهلل ويكبر فرحاناً وهو يوزع كل ما يحويه كشكه الصغير من حلوى على المارة مجانـــاً احتفالاً بما حدث في أمريكا يوم الحادي عشر من سبتمبر ولكنـــه لم يكن يعي أنها ستكون بداية النهاية لآخر خلايا الحلم العـــربي، ولا أعلم لَمَ مازلنا نقاوم لنفرح، ونسخر، ونبتسم، حـــتى وإن ظلـــت وجوهنا واجمة على حزنها النبيل؟!

على المقهى جلس خالي حانقاً، غاضباً، ساخطاً كل ذلك كـــان يتبخر من أنفه (شعب همجي.. جبان.. جاهل.. اتعود يعيش جعان ويهتف لحكومته المتهالكة) التفت إلينا الجالـــسون في الطـــاولات المجاورة، فنبهته بأن صوته قد ملأ شوارع الحي كلـــها، حـــدق في وجهي طويلا مستعيداً هدوءه ثم مد يده المرتعشة إلى فنجان القهوة، سحب رشفتين وعاد به إلى مكانه، بينما جلس أبي مربعـــاً يديـــه كمن يتابع مشهداً سينمائياً مؤثراً، لكن قبل أن يبادر برده المتوقـــع، وحديثه المعتاد عن بطولات حرب أكتوبر، وأحلام الوطن العظيم، طرحت حديثي عن سحر سريعاً على الطاولة، فرفع رأسه نحـــوي مترعجاً وكأن طفله الشقي كسر شيئاً يستحق عليه العقاب، لكـــن يزداد حديثي شراهة كلما زاد شغف خالي لسماع ما أنقلـــه مـــن أخبار عنها، وعن قضيتها، وما وصلت إليه بعدما طردها أهالي البلد هي وأمها وأخوها، فتنفرج أساريره عندما أطرح تساؤلات أشـــبه بتساؤلات البيضة أم الدجاجة؟.. (التطبيع أم الهويـــة العربيـــة؟) –

(إسرائيل أم الأرض المحتلة؟) - (دولة فـتح أم دولـة حمـاس؟)، وظللت أثرثر، وأثرثر حتى انفجر أبي وهو يخنق سيجارته في المنفضة (يالا نروح ع البيت ..كفاية كده) صمت قليلاً حينما وقعت عيني على فنجان القهوة الذي تركه خالي فارغاً، فأيقنت أن كل شيء قد تغير بالفعل ..

بغرفة نومها أمام النافذة الزجاجية كانت تجلس علـى سـجادة الصلاة ترفع يديها للسماء، وتبكي (ربنا يفك سجنك يا وليد يـا ابني ويرجعك بالسلامة) ثم دفنت وجهها بين كفيها وأخذت تتمتم بأمانيها إلى الله حتى أنها لم تشعر بوجودي عندما نهـضت لتـصلي ركعتين أخريين، جذبت الباب خلفي وعدت لخالي الـذي يجلـس بالصالة أمام جدتي فاطمة التي لم ترحمه بحديثها اللاذع وكأنها تتلذذ بمعاقبته على اقتراف ذنب الغياب، فتلقفني كأنما رأى (هركليـز) الذي أتى ليحرره من قيود النار، لكن (هركليز) المنتظر انـزوى في مقعده شارد الذهن، يفكر في أشياء قد تبدو واهنة، لكنها في النهاية تقحمه بالحزن. رمقني خالي بنظرات متفرقة، بينما كان يرد علـى جدتي بكلمات ضئيلة جداً، فقطعت شرودي وبنبرة خاطفة (هرفع مذكرة لمنظمة حقوق الانسان بخصوص اعتقال أخويا وليـد.. لازم اتحرك.. أعمل أي شيء) فابتسم ساخراً (انـت معتقـد ان كـل المنظمات دي اتعملت عشانك أو عشان اخوك؟! المنظمـات دي بتشتغل لناس تانية خالص ملهاش وجود على أرض العرب) تعلقت عيني بوجهه للحظات، ثم استأذنت بالانصراف...

لَم عاد ؟.. لَم عدتُ؟

كنت أود أن أسأله عن كل شيء، عن تلك الشماتة التي ألمحها في عينيه منذ دخل علينا هو وطفليه، هل عاد ليجني انتصاره؟ أم ماذا؟ وددت أن أصرخ في وجهه بأن يرحل، ولا يعود إلا كرجل أعرفه علمني الكثير ثم تركني تائهاً عند مفترق الطرق فاقد الإختيار، لا حكم لي على الأشياء، والناس، ولا قرار حتى على نفسي .. فقط أقاوم ألاعيب الكبار.. أقاوم من أجل أن أرسم وجهي كما أريد، وأصنع طائرتي الورقية كما أريد، وأمشط شعري كما أريد، وأضع عطري الذي أريده.. عودتني أمي أن تقوم هي بحشر قدمي في جواربي، قبل أن أضعهما في حذائي، ثم تدس منديلاً قماشياً في جيب قميصي العلوي وهي تقبلني، وتربت على ظهري قبل مغادرتي المنزل، ساعتها كنت ألقي بنفسي في شق ضيق جداً، لأنني ضئيل جداً، تافه جداً، وعديم الفائدة، حتى نجحت في صنع قهوتي بنفسي، ودون الحاجة إلى كبير يشعل لي موقد الغاز، فشعرت أنه لابد أن أكون أكبر مما يجب ليراني الآخرون، لكن عندما عادت سحر كبيرة جداً تفاجأت بأنهم لا يبصرون، ولن يبصروا أبداً حتى ولو صرت أكبر حجماً من القرد (كينج كونج)، لذلك هم يريدوني مثلهم لا أرى شيئاً آخر غيرهم.. توقفت أمام الباب وناديت ابني ياسين الذي كان يلعب وحيداً في ركن بعيد، وطلبت منه أن يقوم هو بفتحه لنصعد إلى شقتنا في الطابق العلوي، وبعد محاولات متتالية نجح في ذلك، التفت نحو خالي (هكتب المذكرة، وهرفعها لأكبر راس في البلد) تسربت تلك الجملة من فمي بتحدٍ لم أتوقعه، وكأن عفريتا

داخلي هو من نطق بها، فعاد يرسم ابتسامته الساخرة، ثم ردد مستهجناً (أكبر راس في البلد؟!) وقفت أفكر في رد آخر، لكني آثرت الانسحاب، فقبضت على راحة ابني وجذبته برفق إلى الخارج، صافقاً الباب من خلفي..

-٥-

مزقة ورق رمادية ....

(خفر نابليون لا يدخلون الجنة) ٢-٢

أنتم المصريون تعودتم خوض معارككم جميعها بخطة واحدة، لا تتغير ولن تتغير، فقد أضحت مفضوحة للجميع، ورغم ذلك ما زلتم تتمسكون بها، ثم تطلقون أسماءً أخرى على هزائمكم المخزية، تخدعون بها أنفسكم، وتحرمون عدوكم من انتصاره، حتى غفلتم أن خفر نابليون لا يدخلون الجنة.. لأنهم أغبياء.

فكان لا يمكن أن تستمر حياتي وأنا ضمن صفوف هؤلاء الخفر، لذا نزعت عن أنفاسي زوجاً صنع من قش، وتمردت على كل شيء لأنني لم أجن شيئاً من هذا العالم العقيم إلا دموعاً وصرخات وقلباً تكدس بالأوجاع، حتى شعرت أنني أقف بين خيارين؛ الجنون أو الانتحار، ولكن في تلك اللحظات التي بدأت التساقط فيها، امتدت إلى يد الباحث الانجليزي (Simpsons John) عندما رآني لأول مرة وأنا أدفع (ترولي الخمر) داخل غرفته بالفندق الذي كنت أعمل فيه، فبعد كلمات قليلة دارت بيننا، نظر للنافذة الزجاجية المطلة على أضواء القاهرة، ثم طلب مني أن أرافقه في رحلته داخل بلاد العرب، أترجم له نظراتهم.. أنفاسهم.. أحلامهم، وأسرد له حكايات الشوارع والأزقة الضيقة، في القاهرة، دمشق، بيروت، بغداد و.... وفي كل مكان تنفذ منه رائحة عربي، فكنت أنا أول

من حظي به هنا، لذلك كان وجودي الحقيقي عندما خط شـــهادة ميلادي الجديدة بمقدمة كتابه الـــضخم (Arabs do not eat apples) فكتب يبشر بقدوم فتاة تحمل فوق رأسها الشرق لتعبر به إلى عالم العباقرة، وكنت أنا هذه الفتاة .. فمنحته نفسي وكياني وحياتي كلها، وكنت سأمنح ذلك لكل إنسان يهبني تلك الفتاة التي أريد، أو التي يجب أن أكون، بل التي يجب أن نكون جميعاً -هـــو يستحق ذلك- لكنه رحل إلى بلاده وتركني أترنح تحت ضـــغوط شديدة تمثلت في وسط ثقافي كالبلياتشو، ورئيس تحرير غائب عن الوعي فاستقلت من عملي بمجلة (أيام القاهرية) التي عملت بها لمدة ثلاث سنوات بعد العودة من رحلتي الأخيرة مـــع (Simpsons) إلى مدينة (رام الله) والتي التقينا فيها بـــالرئيس الفلـــسطيني ياســـر عرفات، فضاق الخناق وعشت لياليَ بطعم آخـــر مـــع أصـــدقائي المثقفين تحت سحب الحشيش، وأدمغة المخدرات علـــى المقـــاهي، والصالونات الثقافية، وشقق الحظ الجميل، فإذا بيده تمتـــد إليّ مـــن جديد عندما أرسل لي للهجرة إلى انجلتـــرا وهنـــاك تزوجنـــا.. وضُمدت بكارتي المتروعة، فأعاد المكان صناعتي، حـــتى أني ألفـــت النظر لوجهي في المرآة، بل عشقت النظر لوجهي على كل ســـطح عاكس، لأنه لم يعد مشوها بوجوهكم جميعاً..

أنجبت ابنتي (Marie) فعلمتني لغة المكان الآخر، بل علمـــتني كيف أحبو، وكيف أجلس، وكيف أمشي، وكيف أمـــد لـــساني لألتقط ندف الثلج المتساقط من السماء، فأمسكت قلماً وأردت أن

أكتب سطراً واحداً، فكتبت كتاباً ، بل اثنين، بل أربعة كتـــب — الآن حان الوقت ليطبع اسمي على غلاف براق- ليجـــوب العـــالم بجميع لغات الأمم حاملاً معه شرائطي الحمراء، وضحكات طفلـــة يطاردها ولد ماكر أراد أن ينقض عليها بجنونه القروي، فما كـــان مني إلا أن أكسر كل الأحجبة، والحواجز، وأحطم جدارن غـــرفتي المغلقة ليراني العالم كله، ويسمع من في أذنيه صمم...

كلمات قصائدي التي هي أجمل مني، لكني اليوم أتهـــم بالخيانـــة العظمى لمجرد أني أردت أن أثأر لنفسي من الصفر الذي وقف خلفي دائماً على أرضكم، فاليوم أركله بكل قوة كلما جثا على ركبتيـــه أمامي لأعفو عنه، وأنا أردد :"سيقرأني كل من ينبض داخله قلـــب أيها الأحمق الصغير" فاليوم تضعني الكرة الأرضية في اعتبارها وهي تدور حول أعينكم دون أن تشعروا..

وقف أخي الكبير يعلن طردي من رحمته، لأنني تخليت عن ديني وأظهر في صوري أشهر كأساً من نبيذ، لكنه عندما زارني بمـــدينتي الجميلة (Leeds) وحينما كان يتتره بين حقول الريف البريطاني، التُقطتْ صورة له وهو يضع على شفتيه كأس النبيذ ذاته، والتُقطتْ صورة له عندما لمعت عيناه فخراً وهو يجلس ضمن صفوف طـــلابي بإحدى محاضراتي عن علم الجمال بجامعة (Leeds) ثم عاد يقسم بحياة أخته الطاهرة التقية - هه!- أراهن أن كل مـــن ســـيعيش في عالمي يوماً سيعود إليكم يقسم بذلك، لأن الجنة تبدأ من هنا بعد أن جف اللبن والعسل ببلاد العرب، وأصبح الإنسان محطاً للـــسخرية

وكأنه جسد خال من كل أجهزة الإحساس، يحرمونه من طعامه وكأنه لا يجوع، يحرمونه من ملبسه وكأنه دمية عارية، يحرمونه علاجه وكأنه لا يمرض، يحرمونه من صوته وكأنه تمثال، يدقون رأسه بأحذية الشرطة وكأنه لا يشعر، وفي النهاية تطلبون منه أن ينعم في هذا الوطن، ويهتف بحياته كل يوم في طابور الصباح، وبين صفوف الجيش الذي أصبح يختصر في مقدمة رصاصة صدئة.. غريب حقاً أمر حكومتكم التي تحل لنفسها كل شيء، وتحرمه عليكم، فالتطبيع مثلاً حلال لها، لكنه محرم على الشعوب، فإذا صافحت اسرائيلياً، أو أضفته حتى في عالمك الافتراضي على (الماسنجر) تقوم القيامة ولا تقعد، وإذا زرت إسرائيل وتزوجت من فتاة من هناك -فيا ويلك ويا سواد ليلك- تسحب منك الجنسية، وجواز سفرك، ويحرم عليك أهلك، وأصدقاؤك، وجيرانك، وحتى عشيقاتك وجميع حقوقك المسلوبة مسبقاً من فطيرة الوطن الهائلة - فعقاب اسرائيل يكمن في تجاهلها- حماقة هي إذن تلك الأساطير السياسية التي بت أقهقه ضاحكة كلما قرأتها كما لو كنت أسمع أغنية شعبان عبد الرحيم (أنا باكره اسرائيل)، فمعبر رفح أغلق على المصري قبل أن يغلق في وجه الفلسطيني، كي لا يعرف عن هذا العالم أي شيء، بل يظل كما هو -لايرى لا يسمع لا يتكلم- أما أنا فأرى وأسمع وأتكلم وأكتب، وأحيا في مكان آخر، ولا أنصاع للقوانين المريضة، التي صنعت لتحمي كرسي نابليون، من صحوة عابرة أراد بها فئة من الشعب تحريك ساكناً، لكن ثورات المصريين

انتهت منذ عام ١٩١٩ بعدها صنع لكل مواطن جدار يسير جــواره مرعوباً من هذا الظل الطويل الذي يشير نحوه في الظــلام، ويتـــهم بالخيانة العظمى، وتفتح عليه أبواب الجحيم،كل مـــن يحـــاول أن يهرب منه، و ينفذ إلى النور..

د.سحر شاهين

سحبت قصاصة الجريدة من يد السكرتيرة وأطلت النظر داخلها، وكأني أردت التأكد بنفسي من المكتوب، فضربت سطح المكتـــب بروؤس أصابعي باحثاً عن قناعة يمكن بها أن أستمر في شد وجذب نفسي حتى النهاية، وأصلح ما أفسده الكبار بعبثهم في جميع طرقنـــا التي حولوها عن مسارها لتؤدي بنا إلى مـــدن الفـــراغ.. ألقيـــت بالورقة أمامي ثم سألتها بهدوء (فيه مقالات تاني يا هدى؟) قلبـــت يدها داخل ملف البريد اليومي قبل أن تجيب بتردد (فيه زباين كتير سحبوا قضاياهم من المكتب، وده شيء ميطمنش) كظمت غيظي ثم علقت على ما أخبرتني به بلهجة حادة (في ستين داهيه) حركـــت رأسها يمينا ويساراً وأحنتها للأرض (على فكرة البنت دي قضيتها خسرانة، بس بتعرف تلعب على الوتر الحساس وبتـــستغل ضـــعفنا لصالحها، وطبعاً ضعاف النفوس كتير قوي اليومين دول) شعرت أن حديثها موجه إليّ تحديداً، لكني تماسكت، بل وتجاهلت كل ما قالته وكأنها لم تنطق به، فاستأذنت بالخروج بعد أن داهمنـــا الـــصمت.. اختلست النظر إلى ساقيها العاريتين عندما اســـتدارت للخـــروج..

لكنها التفت إليّ سريعاً وهي تجذب الباب نحوها، فارتبكت حركة رأسي قبل أن أتظاهر بالنظر للسقف، ابتسمت، ثم تغيرت ملامحها وهي توجه إليّ الحديث بلهجة حازمة (لو سمحت يا أستاذ يوسف اعفيني من مهمة جمع مقالات البنت دي لأني خايفه أصدقها) ألقت تلك العبارة ثم استدارت مرة أخرى، دون أن تنتظر حتى أبدي موافقتي أو اعتراضي، واستمرت في طريقها إلى الخارج ...

نهضت من خلف المكتب، وجلست في مقعدي المفضل تحت النافذة المضيئة، وأخذت أفكر.. أفكر في طريق قصير يأخذني بعيدا عن شر نفسي التي دائما ما تلقيني بدهاليز ملتوية، فأخرج منها شيطاناً أحمق يحرق نفسه، ويحرق الناس جميعاً، لكني لم أكن شيطاناً أبداً، بل هم من أرادوني هكذا، فأنا لم أتسبب في غرق شهاب، و لم أسرق حصالة أخي، و لم أركض خلف سحر لأتحسس مفاتنها، و لم أتظاهر بالنوم لأسترق السمع، و لم..؟ تنهدت بقوة ثم أسندت رأسي للخلف، سحبت هاتفي من على الطاولة الصغيرة أمامي، وأخذت أبحث عنها في قائمة الأسماء، بحثت كثيراً، وفي كل مرة كنت لا أرى في قائمتي غير اسمها-اسمها فقط-فيطاردني الحنين إليها عندما كنا نسرد الأحلام، وننفخ فيها من أعمارنا لتطير في الهواء دون أن نعلم مستقرها، لكني لم أتوقع أبداً أن أحلامي وحدي هي التي ستحط على أعتابها، لألقاها من جديد تمد لي يدها فأعود بها إلى نقطة البداية، لكنها تسحبني معها كغريق تعلق برقبة منقذه وداس على رأسه لينجو بنفسه، ويموت الجميع، وتموت كل الأمكنة، وتبقى هي بمكان يطفو بها على جثثنا.. أقمت ظهري للأمام سريعاً

-هي ليست كذلك- جاءت تمد لي يدها لأنني الوحيد من يعرفهـا هنا، الوحيد الذي سمع دقات قلبها وهي تحبو للحياة، الوحيد الذي شعر دفء أنفاسها الطازجة قبل أن ينفث فيهـا الكبـار دخـان سجائرهم، وأبخرة خمورهم الملوثة بالشهوة، ويبتلعوها في كروشهم الجوفاء-سحقاً لسكرتيرتي اللعينة عارية الساقين- نظرت لهـاتفي، ودون تردد ضغطت اسمها (سحر شاهين) يرتجف الهاتف مع قبـضة يدي، ترتجف الغرفة بكل أشيائي، يرتجف قلبي مع كل دقة أرسـلها إليها، حتى شقت أنفاسها أذني (عايز أقابلك النهارده ضـروري) انطلقت بتلك العبارة قاطعاً عليها أي كلمة يمكن أن تنطـق بهـا، صمت قليلاً، ثم عدت أرددها (عايز أقابلك ضروري..لازم نتكلم)، فأجابت وكأنها تتمطى في فراشها (أهلا يا يوسف..هي الساعة كام دلوقت؟) نظرت في ساعة يدي (الساعة اتنين ونص بعد الـضهر) غابت أنفاسها للحظات ثم تساءلت بنبرة ناعسة (خـير..حـصل حاجة؟ ليه عايز نتقابل؟!) فأجبتها باندفاع (هي غريبـة إني عـايز أقابلك ونتكلم؟) بدأت لهجتها تأخذ شكلاً آخر (لا أبـداً مـش غريبة.. يناسبك الساعة كام؟) .. عدت بظهري للخلف، ثم أجبت بهدوء حثيث (حالاً)..

على المقهى الأمريكي بشارع عباس العقـاد كانـت الـشمس تقترب من الغروب مخلفة وراءها الأشعة الفضية الرحيمة على الجدار الزجاجي المواجه لنا، نظرت لبلوزتها القرمزية القصيرة، التي تظهـر من تحتها نحافة جسد يعتليه رأس صغير بقـصة شـعر (كاريـه)، ويلتصق به نهدان بارزان، ويسقط منه ذراعان نحيلان، كانت تجلس

جلستها الأرستقراطية بوضع ساق على ساق، دافعة دخان سيجارهّا لأعلى، بعد رشفات متقطعة من قهوهّا (Double Espresso) حدقت في مستغربة نظراتي الطويلة إليها، فابتسمت متسائلة (مالك يا يوسف..فيه ايه؟!) وقعت عيني على خيالي الشفاف المنعكس خلفها على الزجاج، شردت بعيداً حتى سمعتها تنادي (يوسف.. يوسف انت معايا؟) فالتفت إليها ثم حركت شفتي بالسؤال (انت ليه رجعتِ؟ وعايزة توصلي لإيه بالظبط؟).. لم تزعجها أسئلتي، فعادت تبتسم (انت آخر انسان ممكن يسألني السؤال ده..) تغير وجهها وكأنها تتألم.. سحبت نفساً طويلاً من سيجارهّا، ثم استأنفت حديثها (زمان كنت ضعيفة.. أنطرد في الشارع أنا وأهلي.. اغتصب.. أنضرب.. يتداس على راسي بالجزمة.. في النهاية ضعيفة.. لكن دلوقت أنا في منتهى القوة، فغباء أسمح لكم تطردوني تاني، أو تدوسوا على راسي بجزمكم تاني.. دلوقت أنا ممكن أدخل المعركة وآخد حقي كويس جداً، لكن لجأت ليك لأني واثقة إنك عارف مين هي سحر..) نزعت كيساً من السكر وأفرغت محتوياته في فنجاني، ثم قلبته بالملعقة ليذوب داخلها، وأعطي رئتي وقتاً للتنفس، فوضعت الملعقة في مكانها، وسحبت رشفة من فنجان القهوة الأمريكية اللاذعة، ثم بدأت في الحديث (لكن مقالاتك بتستفز الناس جداً يا سحر) فقاطعتني بلهجة خاطفة (المقالات دي بكتبها لك أنت..عايزاك تفهم ده) أمسكت بكيس آخر من السكر معلقاً نظري بوجهها، ثم انطلقت بنبرة مرتعشة

(سحر..أنا بحبك وعايز اتجوزك) فاتسعت حدقتاها، وقفزت من فمها ضحكة مجلجة، وهي تمط حاجبيها لأعلى (وليه بتقولها زي المراهقين كده؟)، طرحت هذا السؤال، وعادت للضحك مرة أخرى، فأحنيت رأسي على صدري، وانتابتني مشاعر متضاربة؛ خجل ربما، حزن ربما، غضب ربما.. لكنها في النهاية آلام بلا معنى.. لا أملك لها قراراً إلا أن.. أنحني.

كانت أمي هي آخر من عانقها قبل أن يحمل مصطفى حقائبه إلى الخارج، وقف في منتصف الصالة ينظر إلى الأثاث والجدران ووجوهنا، كنت على يقين بأنه يودعنا الوداع الأخير قبل العودة إلى قبره، لكن هو من اختار لنفسه ذلك، فلم أشعر أنه يجب أن أملأ عيني بالدموع، أو أرتمي تحت قدمية لأستحلفه بألا يرحل، بل كنت أريده حقاً أن يرحل.. يرحل إلى الأبد، ضمت جدتي فاطمة طفليه إليها، وأسندت يديها على رأسيهما قائلة (شاهدهم وحفظتهم الفاتحة.. عشان ربنا يبارك فيهم يا محمود) أحنت ظهرها وطبعت على خديهما قبلتين (دا جدهم الحاج شرقاوي مات وهو بيقرا في المصحف يا محمود) فاحمر وجهه خزياً دون تعقيب، فأراد أن يهرب من الموقف بمصافحته لأبي للمرة الثانية (أشوف وشكم بخير) كانت تلك آخر عبارة نطق بها قبل أن يلقي بنظرته الأخيرة على كل شيء يمكن أن يودعه هنا..

في الطريق إلى المطار ظل يتحدث عن أشياء كثيرة بلا معنى، تشبه حكايات الأشكيف المخيف،العولمة.. الرأسمالية..التقدمية.. أقباط المهجر ومايكل منير..الانتخابات الأمريكية والبرنامج

الرئاسي، والكونجرس والحرب على العراق ثم عن تعديل الدستور المصري والمادة ٧٦،وتوقعاته للرئيس القادم لمصر،وسيدة مصر الأولى والشعب المصري، والشارع المصري والخبز المصري، يخرج من هذا ويدخل إلى هذا.. أما أنا فقد كنت منشغلاً بضحكاتها التي كانت ما تزال تطن بأذني، أعلم جيداً أنها لا يمكن أن تسخر من مشاعري، ولا يمكن أن تطلق عليّ انطباعات التفاهة التي كانت تلصقها بكل وجه يبتسم لها مبدياً انبهاره، فهي كما هي لم تتغير، ولكن الأماكن الأخرى غالباً ما تمنحنا من هيبتها أنوفاً فخمة نرفعها للسماء، فنرى الناس في أوطاننا كما نرى الجرذان القذرة، لكنها كانت تراني دائما ملاكاً أنيقاً، تريده على استحياء أن ينقض على أنوثتها، فتمارس معه متعة الكر والفر، ليعيش في فوضى الضمير، لا يعرف الصواب والخطأ، ولا الحلال والحرام،بل فقط ينعم بتلك الحياة من خلالها،مهما ابتعدت أو اقتربت، مهما سخرت منه أو أصغت لرغباته حتى لو كانت رغبة عابرة في الزواج.. عبرنا بوابة الدخول إلى المطار بعد أن قبض العسكري المناوب عشرة جنيهات في غفلة من خالي الذي كان منشغلاً بثرثرته كي لا أسمع منه موشحاً طويلاً عن الرشوة والفساد،فسمح لنا العسكري بالعبور من طريق مختصر يوصلنا إلى صالة المغادرة دون عناء حمل الأمتعة (الجنيه غلب الكارنيه) في بلدنا كل شيء يهزم أمام الحق المكتسب الذي يمنحنا سلطة البقاء، والبقاء دائماً للأكثر حظاً، أما الفقراء فلا حظ لديهم،

فقط يدخلون الدنيا ويخرجون منها كشربة وبولة تذهب إلى حيث لا نعلم، ولا يهمنا أن نعلم..

توقفت أمام صالة المسافرين،رجعت بظهري للخلف، والتفت إليه (هشوفك تاني يا خالي؟) صمت قليلاً وكأنه لم يتوقع السؤال (انت عايز تشوفني تاني؟) حدق كل منا في وجه الآخر، ثم ترجلنا من السيارة، وضع حقائبه على عربة الأمتعة، صافحني بشدة، عانقني بشدة، قبلت طفليه،ورحل عني للمرة الثانية وهو يلوح لي من بعيد، فابتسمت عندما وقعت عيني على حذاء (بوش) الصيني يلمع في قدميه، ويشق طريقه إلى أمريكا..

-٦-

مر شهر كامل وهو على هذا الحال،لا يخرج من غرفته إلا للطعام، وقضاء الحاجة، ثم يعود كما كان؛ زائغ العينين، لا يتكلم إلا كلمات محدودة، ويقوم بفعل أشياء تنحصر في الأكل بشراهة، والنوم لساعات طوال، والاستحمام أكثر من ثلاث أو أربع مرات باليوم الواحد.. هجر صلاته، وحلق لحيته، وارتدى بيجامته الحرير التي تخلى عنها منذ زمن طويل.. ولا أحد يعلق على أفعاله، أو يحاول حتى التحدث إليه أو عن تجربته في المعتقل، فكنت أحاول التقرب منه بطريقة أو بأخرى، دون أن أخنقه بفضولي، فأحياناً يتقبلني، وأحياناً أخرى يطلب مني إغلاق الضوء والخروج من الغرفة لينام، لكن قلب أمي لم يسترح لهذا الحال، الذي يحول ابنها إلى كائن آخر لا نعرفه..فقررت التدخل..اقتحمت عليه الغرفة، وصرخت في وجهه بأن يفتح النافذة، ويخرج إلى الناس، ويعود إلى عمله، وينسى كل شيء.. كل شيء أراد أن يجعل منه حيواناً يأكل ويقضي حاجاته وينام، لكنه ثار عليها بكل ما تلقاه من جنون وعذاب، وقهر، وغباء.. فتحول إلى أثاث المترل يحطم ما يعترضه، ويصفع من يواجهه بيديه، ويركله بقدميه أياً كان هو، حتى انهار تماماً، وسقط على الأرض ينتفض كذبيحة في طريقها إلى الموت..

لكن بعد تلك الواقعة بأيام قلائل تفاجأنا به يغادر غرفته، ويخرج إلى عمله، ويعود إلى صلاته، ويطلق لحيته، ويشغل نفسه من جديد

بالحلال والحرام، لكن فضولي لم يحتمل أكثر من ذلك، فتلك الأفعال الغريبة المتناقضة لم تأت من فراغ، فكنت أسأل نفسي كيف استطاع هؤلاء أن يعبثوا بتلك التراكيب المعقدة التي صنعها الله، فيجعلونا لا ننام ولا نصحو، ولا نتحرك، ولا نأكل ولا نشرب، ولا نحب، ولا نكره، ولا نتكلم، ولا نصمت، ولا نتنفس، ولا نموت؟.. كيف استطاع هؤلاء احتراف كل هذا العذاب على أبداننا؟ فيحرمونا حتى من الموت.. كان يجب أن أقترب منه وأعرف ما الذي جرى له هناك؟ وراء الشمس التي لا تغرب أبداً عن رؤوسنا، فتمد يدها كل يوم لتقبض على فرائسها من بين هؤلاء الناس، ثم تلفظهم ككتل لحم مسحولة بلا عظم..

عندما عدت ليلاً لم يكن هناك أحد بالمترل، إلا جدتي فاطمة التي كانت مستلقية على سريرها وبجوارها الراديو مفتوحاً على صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وأخي الذي يجلس بغرفته يقرأ كتاباً (لماذا أعدموني/ سيد قطب) هكذا قرأت العنوان، لم أهتم كثيراً بما يفعله، ورحت أسترجع أياماً قضيناها معاً نتسابق لقراءة رجل المستحيل وملف المستقبل،فكنا مسحورين بالبطل أدهم صبري الذي يتلقى الرصاص في صدره،ويغرق في بحر الرمال، ويسقط من ناطحة سحاب، ونتفاجأ به حياً في العدد التالي، بعد أسباب محبطة يخترعها المؤلف لتبرير حياته، ولكني الآن لست مؤلفاً بارعاً كي أستطيع أن أبرر له حياته بعد تلك التجربة القاسية التي مر بها، فقط أردت أن أبرر له ما أتحدى به نفسي والعالم كله،رفع طرف عينه ثم تساءل مندهشاً لوجودي (يوسف؟!) ابتسمت له وجلست أمامه

على طرف السرير، فترك الكتاب من يده مستطرداً (فاكر يا يوسف زمان أما كنت بتكدب علينا وتقول إنك طلعت القمر، وإن ليك أصحاب هناك؟ تخيل إني كنت بصدقك فعلاً) انفجرت ضاحكاً – ضحكنا معاً– (عارف يا يوسف إن حكومتنا والإخوان المسلمين لهم أصحاب زيك كده على القمر.. لكن المصيبة إننا لازم نصدقهم) استمر الضحك بيننا قبل أن يتوقف لحبس دموعه المترقرقة في عينيه (لكن انت وأصحابك عمركم ما عذبتوني يا يوسف) قال تلك العبارة ثم ارتمى على صدري باكياً.. أخذت أربت على ظهره، وأمسح على شعره، ثم همست قائلاً (لازم تعيد حساباتك من تاني لازم..) فرفع رأسه قائلاً (دول مش الإخوان.. الإخوان مش ممكن أبداً يعملوا صفقات مشبوهة مع ناس لمجرد إن لهم شعبية عشان يدعموهم لدخول مجلس الشعب.. الإخوان لايمكن أبداً يتعلقوا بلعبة السلطة القذرة وينسوا رسالتهم.. الإخوان لايمكن أبداً يحطوا إيديهم في إيد الحكومة على حساب الغلابة عشان مصالحهم الشخصية، الإخوان أعدمهم عبد الناصر بعد حادث المنشية وجه السادات علم الباقي منهم الدهاء، والخيانة والخداع؛ فقتلوه.. دول مش الإخوان يا يوسف دول صورة تانية من الحكومة)..

أنهى حديثه معي وعاد يفتح الكتاب مرة أخرى، أخذ يقلب الصفحات، أطلق زفرة طويلة، ضغط بأطراف أصابعه على مقلتيه، ثم أشار لي بيده الأخرى بالخروج، طالباً مني إغلاق الضوء وباب الغرفة ليرتاح.. لكن قبل أن أهم بالخروج ناداني بصوت عالٍ (يوسف؟) فالتفت إليه (انت كمان لازم تعيد حساباتك كويس)

هزرت رأسي بالموافقة، وأغلقت الباب خلفي دون أن أعلق بكلمة واحدة..

صعدت إلى شقتي بالدور العلوي، هدوء قاتل.. وحدة رهيبة أعيشها.. غربة تحيط بي كلما دخلت إلى هنا.. أردت لو أتحدث إليها لتشعر بي ولو للحظات، لكنها تصر أن تكون أماً تربي ابني، وطباخة تطهو طعامي، وشغالة تنظف بيتي،فقط هي مجرد آلة تتحرك بعقل الكتروني، ولا تخطئ طريقها لرجل أوجدته الصدفة بهذا المكان، فقدر له أن يتحدث إلى جدرانه، وأشيائه، وأشباحه.. هي لم تسألني يوماً عن وجود سحر بحياتي، ولم تسألني أبداً عن عطرها العالق بملابسي منذ أن التقيت بها، لم تسألني عن؟؟ إلى من أشكو هذا العذاب؟.. إلى من أتحدث وأخرج الطوفان الرابض داخلي؟.. فتحت باب غرفة النوم فرأيتها مستغرقة في نومها، عدت إلى الصالة وقعت عيني على طعام العشاء الموضوع بعناية على الطاولة.. أزحت الغطاء عنه، وتسمرت أمامه.. ثم تساءلت بصوت مسموع (وطبعاً هتعشى لوحدي زي كل يوم).. تركوا لي الشيطان ليشاركني طعامي وشرابي، وتركوا لي نفسي لأتحداهم بها، لكنهم في النهاية خاسرون .. والرابح هو أنا.. حتى لو خسرت أمامهم مائة ألف مرة؛ فالرابح هو أنا..

فزعت على جرس الهاتف، فوجدت نفسي وقد سرقني النوم على (الفوتيه) بملابس الخروج، تطلعت في ساعة يدي -الثامنة والنصف

صباحاً-صمت جرس الهاتف.. صمت معه كل شيء، هدوء بارد يملأ حياتي، ويثقلها بالوجع.. فلا أسمع إلا أنيناً دائما،وصرخات جوفاء.. عاد جرس الهاتف، فنهضت من مكاني، وجذبت السماعة، وبصوت متكاسل (ألو..).. (صباح الخير يا فندم... حضرتك أستاذ يوسف؟) كانت المتحدثة فتاة.. فأجبت بجفاف (صباح النور.. أيوة أنا يوسف.. خير؟) فاستأنفت حديثها بتفاؤل (خير إن شاء الله.. معاك أميرة من مكتب الأستاذ عز الدين محمود..هو كلفني أبلغك إنه عايز يقابل حضرتك في مكتبه بمقر الحزب الناصري.. ممكن تحدد الوقت الي يناسب حضرتك؟).. بلا أدنى تردد وجدتني أنساق للإجابة (بكره الساعة عشرة صباحاً) فعقبت بسرعة فائقة (وهو كذلك يا فندم.. الأستاذ هيكون في انتظارك حسب الموعد..) انتهت المكالمة دون أستوعب ما الذي فعلته.. هي قالت عز الدين محمود يريد مقابلتي؟! وأنا وافقت وحددت الموعد؟! كيف حدث ذلك؟ وماذا سأقول لأبي؟- لن أذهب - ماذا يريد مني هذا الرجل؟ سأذهب لملاقاته.. لكن أبي ماذا أقول له؟.. كان يجب أن أحسم قراري في تلك اللحظة..

قررت البقاء في المنزل، وقضيت اليوم كله مع ابني ياسين، لعبنا معاً، ضحكنا معاً، قصصت عليه حكايات الأشرار والطيبين (أمنا الغولة وست الحسن والجمال، و الشاطر حسن)، فراح يسأل عن كل شيء، وأنا أجيب، استفسارات كثيرة، وأسئلة أكثر (انت منين اشتريتني يا بابا؟ وهو ربنا شكله ايه؟ وبيشوفنا ازاي؟ وليه مش

بنشوفه؟ وليه عمو وليد عنده دقن وانت لأ؟ وليه مش بتلعب معايا كل يوم يا بابا؟؟)، يسأل، ويسأل، ويسأل ثم نعود للعب، نطير الطائرات، ونخوض معاً حروباً ضارية ضد جيوش الأعداء، ونعيش مغامرات بين الغابات الشاهقة، ونغوص بأعماق البحار البعيدة، فكنت ألمح في عينيه فرحة لم أرها من قبل، حين يضحك، حين يهلل، حين يفرد ذراعيه ويلقي بنفسه في حضني كلما انتصر.. هو أنا.. وليته لم يكن، قدر له أن يخلقه الله ليحمل تلك الطباع التي لا تنزع عنا إلا بأن نولد من جديد.. لأب آخر وأم أخرى وحياة لا نعلم عنها الكثير، فنعيش كأننا لا نعيش، ولا نحلم إلا بالتراب، وبيوت من الطين، لكن ياسين هو يوسف، يعي جيداً ما يفعله، ويتظاهر بالنوم ليسترق السمع من الآخرين، ليعلم عنهم تلك الخفايا الساكنة بين مخابئهم الضيقة، فيطيح بأسرارهم ويسخر منها كما السحرة التي تصنع من الحبال ثعابين تتلوى يراها الناس فيخروا ساجدين لملك أبله ظن نفسه خالقهم..

بالفراش.. سألتني عن سحر، عن شكلها، عن لون بشرتها، عن تسريحة شعرها، عن ملابسها، عن أحذيتها وحقائبها، عن..؟؟ جذبت رأسي نحوها بعنف نسائي لطيف (أنت مش بترد ليه؟) فأزحت يدها بهدوء، وأسندت ظهري للوسادة قائلاً (أنا هتجوزها) حدقت في وجهي بعينين لا تطرفان.. سحبت جسدها من الفراش، وغادرت إلى غرفة ياسين دون أن أتلقى منها كلمة واحدة.. كنت أتمنى أن تمتد يدها لتصفعني وتسبني بأبي وأمي وكل أهلي، ثم تكتم أنفاسي تحت الوسادة لأموت مختنقاً.. كنت أتمنى أن تبكي، وتصرخ

وتلقي بنفسها تحت قدمي تقبلهما لئلا أفعل، لكن هذا الصمت أضحى هو البديل لكل أفعالنا المفترضة..

التقينا داخل المصعد، كان يرتدي بزته الرمادية متأبطاً الجريدة، ابتسم في وجهي ملقياً تحية الصباح، فأردت في تلك اللحظة أن أعترف له بأنني في طريقي للقاء منافسه القديم عز الدين محمود، لكنه سبقني بسؤاله (سكرتيرة عز الدين محمود اتصلت بالبيت امبارح وأعطيتها رقمك.. كلمتك؟) فاحمر وجهي،وتلعثمت بالإجابة كأنني ذلك الطفل الذي ارتكب ذنباً عظيماً وحان الوقت ليعاقب عليه (أنا رايح عشان أقابله) بحذر شديد نطقت بتلك العبارة، فعاد يبتسم قائلاً (أنا عارف هو عايزك في ايه) شعرت بارتياح لرد فعله الهادئ-انفتح الباب-عبرنا مدخل العمارة إلى الشارع، فاتجه يميناً في طريقه إلى المقهى، واتجهت يساراً لأستقل سيارتي، لكنه توقف منادياً قبل أن نبتعد كثيراً (يوسف؟؟) التفت إليه وقلبي ينتفض (أنا مش زعلان منك يا ابني) أغمضت عيني للحظات متنفساً الصعداء، وعدت أنظر إليه مبتهجاً، ثم مضى كل منا إلى حال سبيله..

(ارفع رأسك يا أخي)

وصلت قبل الموعد المحدد كالعادة، استقبلتني السكرتيرة بترحاب شديد، وطلبت مني أخذ مقعد للانتظار، بادرني شعور غريب وأنا أطالع صور عبد الناصر المنتشرة على الجدران القديمة، فتوقفت على

صورته التي يضع فيها يده على كتف ابنه الأكبر "خالد" عندما كان صبياً في مقتبل العمر، ودارت في رأسي اسطوانة التوريث التي تجري على ألسنة الصغار والكبار الآن، فحولت هذا البلد إلى فانتازيا كبيرة تسخر منها حمير الأرض (مصر كبيرة عليك- مصر بعيدة عن شنبك) وكأنها أصبحت تفاحة يغيظ بها ابن العمدة أولاد البلد المحرومين حتى من أكل الخبز، رفعت رأسي (للبروشور) العريض الذي يحمل شعار الحزب، وخريطة الوطن العربي الخضراء (حرية/ اشتراكية/ وحدة) فتحسرت على الحلم الذي أضحى محصوراً في مبنى قديم بوسط البلد..

أذنت لي السكرتيرة بالدخول، كان يجلس خلف مكتبه، واضعاً على أنفه نظارة للقراءة- لم تتغير ملامحه كثيراً-فنهض من مكانه ومد يده يصافحني، ثم أشار لي بالجلوس (أهلا يا يوسف.. اتغيرت كتير عن أول مرة شفتك فيها وانت طفل صغير يوم ما استقبلتوني في البلد) صدمت لتلك الجملة التي نطق بها.. هل كان يشعر بي حقاً وسط هذا الحشد الهائل من الناس؟! أم أنه يستعرض كراماته كما يفعل المنجمون لتخدير زبائنهم، لذلك تظاهرت بعدم الاهتمام بما قاله، وفضلت أن أبادله الترحيب (أهلا بك يا أستاذ عز..سعيد بلقائك) كنت أريده أن يدخل في الموضوع سريعاً لأعرف ماذا يريد تحديداً.. فأسند ظهره للخلف متحدثاً بعد أن خلع نظارته من على أنفه، وظل محتفظاً بها في يده اليمنى

-لن أطيل عليك..لكن قبل أن نتحدث لا بد وأن تخبرني ..

-أخبرك بماذا؟

- ماذا ستشرب يارجل؟

أدركت أنه يتلاعب بأعصابي، فأبديت وجومي:

-أي شيء لا يهم..

-تشرب شاي معي؟

-لا مانع من ذلك.

-لكني أشربه بدون سكر؛ فأنا لست عضواً بالحزب الوطني كي أسلم من أمراض العصر..

كان يفترض أن أضحك أو أبتسم للمرة الثانية، لكني لم أفعل:

-أي شيء. لا يهم.

فرفع سماعة الهاتف، وتحدث إلى الفراش معلقاً نظره بعيني:

-واحد شاي لي، وآخر للضيف سكر مضبوط.

وضع سماعة الهاتف، وقام من خلف مكتبه وجلس في المقعد المواجه:

-سحر شاهين..

اقشعر جسدي لوقع الاسم على مسامعي، وبدأت أشعر بالدماء تحتك بشرايني:

- ماذا بها؟

- لماذا تدافع عنها؟

- هذا عملي. وسحر موكلتي؟

- هل أنت مقتنع بالدفاع عن انسانة تتعامل مع الصهاينة؟

- وهل لابد وأن يقتنع المحامي بكل قضاياه؟

- لا أفهمك.

- المحامي جزء من منظومة القانون.. والقانون لا يرى..

- لكننا كلنا نراك، وهذا يكفي..

- يا سيدي أنت محام كبير، وتدافع عن القتلة وتجار المخدرات، و..

- أعرف ماذا تريد أن تقول.. لكن الأمر بالنسبة لقضيتك مختلف.

- ماذا تقصد؟

- القضية قضية وطن وهوية ودماء، وعروبة، ومبادئ ثورة عظيمة.

- وأنا أراها حرية شخصية لا تمس قضايا الوطن ولا مبادئ ثورتكم العظيمة.

- حرية؟ أية حرية تعنيها؟ تلك الحرية نحن من منحناك إياها..

- من فضلك. أريد أن أعرف ما هو المطلوب مني تحديداً؟

- تتراجع عن الدفاع عنها فوراً..

- مع الأسف.. أنا لست ناصرياً لألقيها في البحر..

-الناصرية هي من صنعت لنا كرامتنا التي تهدرها أنت وصديقتك الآن.

-تقصد أن الناصرية هي من خدعتنا جميعاً..

- بالتأكيد والدك هو من شجعك على هذا.

- لم أعد طفلاً صغيراً يا سيدي.

- ستخسر كثيراً.

- سنلتقي إذن..

- لا أظن ذلك..نهضت من مقعدي، واستأذنت في الخروج بعدما وصل الحوار بيننا إلى نقطة لا يمكن أن أتخطاها.. نزلت إلى الشارع ونظرت في وجوه الناس الشاحبة، مشيت بينهم، أزاحم أقدامهم المتداخلة، وعيونهم المترنحة هنا وهناك، كأنهم سكارى وما هم بسكارى، لكنهم في النهاية أجزاء من هياكل أرادت أن تكتمل، لتتحرك، وتأكل وتشرب،وتمشي في الأرض مرحاً،فمنهم من يقضي حياته كلها ليحصد قمحة، ومنهم من يضيع عمره كله ليحمل بقرة، ومنهم من يعود إلى الله بيد خاوية طمعاً في الجنة.. أما أنا فبماذا سأحظى من أفكارهم تلك إلا بنار في الدنيا ونار في الآخرة..



القسم الثالث

-١-

فاطمة ترقد في سريرها،ترقد لساعات طوال، لكنها لم تمت بعد، إذا ماتت فاطمة يموت البيت كله، إذا ماتت فاطمة تموت الذكريات كلها، إذا ماتت فاطمة يموت التاريخ كله، وتحيا فينا أوهام مشوهة تملأ علينا مساكننا حتى نختنق ونتوقف عن التنفس تماماً..ماتت فاطمة؟؟.. ماتت فاطمة.. لا أطيق سماع تلك العبارة، لا أطيق سماع بكائك يا أبي، لا أطيق رؤية جبل ينهار، فتلك الجدران لنا نأوي إليها، تلك الأنفاس، والأصوات، والرائحة لن تغادر بيتنا، نرحل نحن وتظل هي تبتسم لكل من يجلس جوارها، لا تبك يا أبي.. فجدتي هنا.. وهنا..وهناك، أراها كما أرى المرايا، والزبرجد، والذهب، تقف على أبواب غرفنا، ونوافذنا، ترفع كفيها للسماء تدعو لنا، وتجمعنا على بساط الفرار من هذا الكابوس الطويل، لنطالع وجه الدنيا الجميل، ونعيش بين حناياها الطيبة.. ونهرب من تلك المتاهات الممتلئة بالقلوب الملونة.. لا أطيق سماع بكائك يا أبي.. فمن يبكي هو أنا، من يشقى هو أنا، من وجب عليه الموت هو أنا، أما أنتم جميعاً فلكم الحياة، ولكم الجنة..

بمقبرة البساتين كانت مراسم الدفن تجري بسرعة، وكأن القبور لا تنتظر كثيراً حتى يواري الجسد التراب، ألقى أبي نظرة أخيرة على الثرى المبلل، ورفع يديه للسماء يدعو الله، ثم راح يصافح المعزين، كنا أنا وأخي إلى جواره نشعر بقلبه و دموعه، وحزنه الذي اختار

أن يبقى مرسوماً على وجهه، فأسند كفيه على كتفينا بعد أن غادر المعزون جميعهم، ومشينا به حتى نهاية الممر الذي قادنا إلى السيارة، كنت أفكر في أمر البيت الذي سنعود إليه وقد خلا من بركتها، ودعائها، وصلاتها، والقرآن؟ لكنها الحياة التي تأكل كل شيء في طريقها كي تستمر، وتبقى بيننا الأساطير نسردها على القادمين من الأرحام، فتتوالى الحكايات تحمل على رقابها أبطالاً لا يموتون، بل يدخلون ويخرجون من معاركهم بألف رأس، وألف روح، وألف جرح يترف ناراً.. ظل أبي صامتاً طوال الطريق وكأنه أراد أن يستعيد تلك الذكريات التي تشق العقل، فتسيل مع الدماء، وتضخها العروق كلما زارنا عزيز لن يعود إلينا أبداً.. عندما وصلنا إلى البيت كان ما يزال صامتاً، لا يرد على أحد يوجه له حديثا، أو كلمات مواسية، فخلع عباءته وناولها لأمي، ثم دخل إلى غرفة جدتي فاطمة، وأغلق عليه الباب وسط نظرات الجالسين..

دخل مصطفى مندفعاً من الخارج، فوقف يلتقط أنفاسه بمقدمة الصالة ثم أشار لي بيده، فانسحبت من وسط أفراد العائلة متقدماً إليه، وبلهجة شابها القلق (خير يا عم مصطفى؟!) فازدرد ريقه، ووضع كفه على صدره قائلاً (الأستاذة سحر في تاكسي تحت البيت.. بتقول عايزه تطلع تعزي في المرحومة.. فقلت أجي ابلغك) تجمد وجهي، وشعرت بصهد ينفجر من أذني، فتلفتُ يميناً فيساراً، وانطلقت قائلاً (يا نهار أسود..بتقول مين؟) طرحته خلفي، وهبطت

مسرعاً إلى الشارع، كانت تجلس في المقعد الخلفي بالتاكسي المنتظر، مرتدية ملابس الحداد السوداء، نقرت بأصابعي على زجاج النافذة حتى تنتبه لوجودي، لكن قبل أن تفتح الباب أشرت لها بالبقاء في مكانها، جلست إلى جوارها، وطلبت من السائق أن يتحرك، لكنها أوقفته، وبنبرتها المقنعة تحدثت (انت ليه مش عايزني أطلع؟ ده واجب ولازم اعمله)، فهززت رأسي قائلاً (أنا مش عايز مشاكل يا سحر)، فأزاحت الباب من ناحيتها بقوة، وعبرت مدخل العمارة بخطى واثقة دون أن تلتفت لأي شيء، كنت أسير خلفها محاولاً إقصائها بعبارات كثيرة أشبه بالتوسل، وأقرب إلى العجز، لكنها لا تريد من يفسد عليها هذا الدور الذي أتت لاستعراضه بكامل هيئتها، فتعلن لهم أنها ما زالت تعيش وتتنفس، وتتحرك، وتأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، و لم تعد تلك الطفلة الصغيرة التي وضعوا على وجهها التراب لتموت بعارٍ لم ترتكبه..

عندما دخلت من الباب، التفتَ إليها الجميع، فساد الصمت، ووجمتْ الوجوه، توقفتْ قليلاً ومسحتْ وجوههم، ثم تقدمتْ نحو مقعد أمي مسرعة، لم تنتظر حتى تتحرك من مكانها،فصافحتها بحرارة، وأحنت ظهرها لتقبلها على خديها، شدتْ على كفها، وبلهجة حزينة (البقية في حياتك يا طنط)، فأسندتْ أمي يدها على كفها متسائلة (متآخذينيش يا بنتي ..انت مين؟) فرفعتْ رأسها لأعلى حتى كادت أن تبلغ الجبال طولاً (أنا الدكتورة سحر شاهين

يا طنط) خطفت أمي يدها من كفها، وعلقت نظرها بوجهها طويلاً، كأن سهماً قد سقط عليها من السماء، ثم أدارت وجهها عنها، فالتفتتْ زوجتي ناحيتي في ذهول، لكن قبل أن تنفجر بكلمة واحدة، كنت قد أسرعت الخطى نحو جهاز (الكاسيت) لأرفع صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد المنطلق بسورة الغاشية، فقامت زوجتي من مكانها متجهة إلى المطبخ، بعد أن جلست سحر في المقعد المواجه لها، ثم خرجت بعد قليل تحمل صينية عليها فنجان من القهوة، وضعته أمامها بهدوء غريب، وعادت إلى مقعدها مرة أخرى (اتفضلي واجبك.. وسعيكم مشكور) قالت تلك العبارة، وهي تمد عينيها ناحية باب الشقة..

:

٢٠ يونيو ٢٠١٠...

الحكاية لم تكن تؤرقني كثيراً، فأنا بعيد كل البعد عن مثل تلك الأمور، حتى أنني لم أشترك في مظاهرة واحدة طوال حياتي، ولم أرفع صوتي يوماً منددا بالحكومة وأعوانها، لكني تعودت أن أسير جوار الحائط على أطراف الظل أتفرج من بعيد على زحام المساكين، متحيناً اللحظة المناسبة التي أعلن فيها عن تمردي بعيداً عن حجر أمي، وخارج جدران البيت الذي أرهقه عنادي، فأتت قضية سحر لتنزع المسمار الأول من نعش التنين الجاثي داخلي، فجاء قرار الإضراب العام للمحامين، بعد تجديد حبس زملائي على ذمة قضية

الاعتداء على مدير نيابة طنطا، ليكون بمثابة نزع المسمار الأخير من حياتي الوديعة التي أعيشها، فشاهدت نفسي أقف بينهم أمام مبنى النقابة، لأرفع صوتي لأول مرة بعيداً عن فلقة جدي التي التفت حول أقدامي المرتعشة لسنوات طوال (يا رئيس الجمهورية احنا نقابة حرة أبية) فحملني أحدهم على كتفيه، كأنه أراد أن يحتفل بوجودي الجديد، وأخذ يشق الجموع، ورؤوس العسكر المتربصين بملابسهم السوداء، ودروعهم، وعصيهم وبنادقهم، التي ساقوها إلينا، ونسوا أنها صُنعت من أجل أن يهشوا بها على أغنامهم الضالة، فظل صوتي يعلو في وجوههم بكل قوة..(يا عدالة فينك فينك..النيابة بينا وبينك) فتترجرج دمائي كلما سمعت من يرددون خلفي بقلوب غاضبة..

احتدم الصراع بين الجبهتين، فامتزجت العصّي باللحم، وتداخل السواد مع الألوان الأخرى، واختلطت الآهات بالصراخ، وصيحات الترهيب، فجذبني شخص من تحت أقدامهم، لم يكن وجهه غريباً على نفسي، فحاولت أن أستجمع ملامحه من خلف النظارة التي يضعها على عينيه،ثم أشرت إليه بسبابتي متسائلاً (محمد فتحي..صح؟!) فابتسم لي وهو يفتح ذراعيه بالعناق، ثم سحبني إلى أحد الشوارع المتفرعة من الميدان، وخلال الطريق القصير كنت أسترجع معه الأيام التي قضيناها معاً بمدرسة الضاهر الثانوية، فنضحك أحياناً، ونتحسر أحياناً أخرى على أيام ذهبت دون أن ندري أنها لن تعود إلا لذكرى عابرة، سألته عن عمله وعن سبب تواجده في تلك المظاهرة، فأخبرني بأنه يعمل صحفياً بجريدة

الدستور، وجاء لتغطية الحدث، كانت رأسي قد أصيبت، وتمزق قميصي، فأجلسني على مقهى صغير لألتقط أنفاسي، فمد يده لي بمنديل وأشار إلى صنبور المياه داخل المقهى (قوم اغسل راسك من الدم ده، على ما اطلب الشاي) فاتجهت ناحية الحوض، ووضعت رأسي تحت الصنبور النحاسي القديم،ونظرت للماء المختلط بدمائي، وشعرت برضا لم أصل إليه أبداً من قبل، فجففت شعري بالمناديل الورقية التي منحني إياها، لكن عندما عدت إليه، حدق في وهو يضع كوب الشاي أمامي بعد أن أنهى تقليب السكر داخله، ثم تحدث مستنكراً :

- "وما ذنبنا نحن في موضوع إضراب المحامين هذا؟ لماذا تعطلون مصالحنا، وتضربون وكأن الحكاية ناقصة هذه العطلة؟ ثم ألا تتفق معي أنكم (نزلتم على مفيش) وأن الموضوع (اتحل كما يريد رجال النيابة)؟

وكأنه نكأ جرحي بسؤاله هذا، فأجبته بغيظ:

- ما حدث هو موقف كان يجب أن يتخذ.. فيجب أن تعلم الناس ما نحن فيه، وما نستطيع فعله.

فهز رأسه غير مقتنع بإجابتي لكنه تركني أكمل حديثي:

-كل الناس تنظر إلى وكيل النيابة على أنه فلان بيه.. بينما المحامي هو الأستاذ فلان الموجود في كل مكان.. هل تعلم أن المحامي ليست له حصانة بينما وكيل النيابة له حصانة؟ هو، والهيئة القضائية بأكملها.. هل تعلم أن وكيل النيابة هذا الذي أنا مجبر على أن

أخاطبه بلقب بك من الممكن أن يكون زميلي في الكلية؟ ومن الممكن أن يكون تقديري أعلى منه في الأساس لكنه دخل النيابة لظروف استثنائية.

فأطرق قليلاً، وشعرت به وقد بدا أكثر اهتماماً، فتماديت في حديثي:

- أبناء المستشارين الذين يتخرجون في كلية الحقوق يعينون في النيابة (وش).. ومن لا يعين فاعلم أن بين والده، وبين واحد من الكبار مشاكل كبيرة أو أن هناك تربيطات سياسية معينة حالت دون تعيين ابنه كوكيل نيابة.

فألصق سبابته بخده الأيمن، وظل يصغي إليّ:

-بعض الوظائف في بلدك يدخلها الناس بالواسطة أو بالرشوة. طبعاً هناك أكفاء نالوها بمنتهى الاحترام والشرف لكن نسبتهم ضئيلة جداً، وتكاد لا تذكر إلى جانب الآخرين.. عندك مثلاً قطاع البترول لا يعين أحداً إلا بتأشيرة الوزير أو بضغط من عضو مجلس شعب أو بكفاءة استثنائية أو برشوة..رشوة عيني عينك..من يأخذها؟ -الله أعلم- لكن من يملك التعيين بالتأكيد يأخذ جزءاً منها فابحث عنهم بمعرفتك. النيابة مثلها مثل هذه الوظائف. هناك من يعينون فيها بكفاءتهم أو بالواسطة أو بالرشوة. أنا شخصياً أعرف زملاء لي عينوا لأن أسرهم وفرت لهم ١٥٠ ألف جنيهاً، وهو المبلغ المعتمد، والشهير الذي ستسمعه هنا في القاهرة والاسكندرية وكل مكان.

كنت أتحدث بطلاقه أدهشتني، فتوقفت لأخذ جرعة ماء، لكنه لم يقاطعني:

-أقول لك على شيء بسيط.. المحامي يكون مطلوبا منه أن يكون موجوداً في دائرته من التاسعة صباحاً بينما أغلب وكلاء النيابة والمستشارين لا يبدأون قبل الحادية عشرة، وعلى أبوابهم يقف حرس يتعامل مع المحامي وكأنه نكرة أو طالب إحسان فحين يسأل المحامي عن الباشا يقول له الحارس الباشا مش فاضي.. طيب ماذا يفعل الباشا؟.. الباشا يتحدث في الهاتف.. الباشا يتناول إفطاره.. الباشا يرغي مع زميله الباشا.. والمحامون ينتظرون الفرج من عند الباشا.. أساساً أساساً.. الباشا عندما يصل كيف نعرف أنه وصل؟"

تطلعت إليه متسائلاً لكنه لم يرد، ليعطيني الفرصة للإجابة:
- نعرف ذلك من هذا العامل الذي يدخل دافعاً كل من حوله عن طريقه سواء كان محامياً أو موكلا أو حتى أمين شرطة أو ضابطا وهو يصرخ: وسع طريق وسع طريق للباشا. ويدخل الباشا بخطوات واسعة ببذلته الأنيقة التي حصل عليها بخصوم معتمدة من أكبر المحلات، ونظارته الشمسية الثمينة التي ربما أهديت له من أحدهم ليمشي غير عابئ بالآخرين ويصعد مباشرة في المصعد الذي يكون منتظرا سيادته والذي لا يسمح للمحامي بالصعود فيه لأنه يخص الباشاوات وكلاء النيابة.

فرفع حاجبيه مندهشاً لكلامي،فتحمست للاستطراد في الحديث:

- طيب أقول لك على حاجة.. عدد كبير من السيارات التي يركبونها أنت تعلم أنها سيارات فخمة ولم نسمع أو نرى واحداً منهم مثلاً عنده سيارة ١٢٨.. لا أقصد أنهم سارقينها لا سمح الله أو أنهم مرتشون.. أنا لا أدخل في النوايا ولا أستطيع أن أتهم الناس بالباطل لكن لوكلاء النيابة امتيازات خاصة عند معارض وتوكيلات السيارات سواء في الأسعار أو في تخفيض الفائدة أو في مد فترة التقسيط، لكن كل هذا طبيعي، ما يمكنك اعتباره غير طبيعي هو عدد من السيارات الفخمة والفاخرة التي يتم التحفظ عليها في ضبطيات قضائية ومن ثم إعادة بيعها لوكلاء النيابة بثمن بخس، كما أن هناك قضايا معينة تنتهي بأن يسأل وكيل النيابة المتهم في محضر رسمي هل توافق على التبرع بسيارتك والتنازل عنها للهيئة القضائية ليرد المتهم بالإيجاب، وهكذا ترى سيارة (BMW) سعرها ٤٠٠ ألف جنيه مثلاً تباع بأقل من ٧٠ ألف جنيه، وطبق هذا على باقي الضبطيات، وكل شئ قانوني يا أستاذ..

فتوقفت عندما أخرج من جيبه ورقة، وقلماً، وأخذ يدون بشكل سريع، أخذت أتابعه في صمت حتى أعاد القلم إلى جيب قميصه العلوي، فأطلق زفرة في الهواء قائلاً: (حديثك ده حط أيدي على خيوط كتير فكان لازم أسجلها عشان أدرجها بالتغطية)، فخطفت الورقة من يده، وبلهجة مازحة (أنا اسمي مكتوب؟) فعلت ضحكاتنا حتى انتبه لها الجالسون، تبادلنا أرقام الهواتف، وتواعدنا على اللقاء..

في طريق العودة إلى المنزل كانت لافتات أخرى ترتفع في يد مئات الشباب، والفتيات، والرجال والنساء تحمل صورة جثة مشوهة مكتوب عليها عبارات عدة (خالد سعيد شهيد الطواريء- كلنا خالد سعيد- حق خالد سعيد..حق مصر) فتحت النافذة الزجاجية لأجد من يفسر لي (من خالد سعيد هذا؟) لكن الهتافات كانت تطغى على أي صوت آخر (يا قوانين استثنائية لا للدولة البوليسية)، رفعت زجاج النافذة مرة أخرى، وتملصت من الزحام إلى أحد الطرق السريعة طارحاً السؤال الذي تضخم داخلي (هل قامت في بلدنا ثورة اليوم؟)، جذبت مفتاح الراديو كي أتلقى الخبر من مصدر موثوق، لكن كل شيء يبدو طبيعياً، فإذاعة القاهرة ما تزال تبث أخباراً اعتيادية عن تحركات الرئيس، فانتقلت بالمؤشر إلى إذاعة أجنبية، فربما تكون أكثر جرأة لإذاعة مثل تلك الأخبار، فسمعت ذات المذيع يتحدث بلغته الفصيحة مع ناشط حقوقي حول قضية خالد سعيد الشاب المصري الذي قتل على يد الشرطة بشكل همجي بمدينة الاسكندرية،فارتفعت الأصوات المنددة لتتخذ من الحادث انطلاقة لتسليط الضوء على قانون الطوارئ الذي يمنح رجال الشرطة حقوقاً مزعومة وكأننا كلاب أصابها السعار فوجب اقتناصها بلا رحمة، كان الناشط الحقوقي يتكلم بانفعال شديد، مستغرباً من وجود مثل تلك القوانين في بلدنا إلى الآن، لكن المذيع واجهه بأن مجلس الشعب هو من يقر بتمديد هذا القانون منذ اغتيال السادات، فرد الناشط بلهجة العاجز المغلوب على أمره (يا سيدي

إن المجالس التشريعية في مصر منذ أنشأها الخديوي اسماعيل وما هي إلا ديكور رائع يضفي على كرسي الحكم رونقاً وجمالاً لا أكثر ولا أقل) أشعرتني تلك العبارة بخوف أفقدني الثقة في هذا الأمان المزعوم الذي نعيشه،وتخيلت أن يكون الدور عليّ لترفع صورتي على لافتات ورقية تنعي حظي ..

(*) الحوار المدرج هو مقال للكاتب الصحفي محمد فتحي تحت عنوان (محامي ووكيل نيابة وبينهما مظلوم)..

-٢-

امتلأت الأجواء برائحة التبغ الكوبي المحترق،ومرت من أمام أنفي عطور الأرض كلها التي تفرزها جلود النساء والرجال هنا، فهي المرة الأولى التي أسقط فيها بكامل جسدي داخل كريمة المجتمع المحلاة بالشيكولا، والفواكه التي لن يراها المساكين أبداً إلا في جنات الخلد، فرأيت هذا الكم من الصحفيين، والفنانين،والساسة الكبار وجهاً لوجه، أشم أنفاسهم، وأسمع ضحكاهم،وحديثهم المنمق الذي يخرج من أنوفهم المرفوعة للسماء،وقفت وحيداً أتفرج عليهم من ركن قصي، بعد أن تركتني سحر وانصهرت بينهم، فوقعت عيني على الوزير الذي جلس منفوشاً في مقعده محتفظاً بوقاره بعيداً عن كؤوس النبيذ، فخطرت على بالي فكرة مصافحته، لأقسم لكل رفاقي من سكان الكوكب الآخر الذي يحتضر خارج هذا المكان، بأن كفي هذا قد صافح وزيراً يوماً ما، لكني تراجعت عن الفكرة سريعاً، عندما حضرتني حادثة اغتيال المواطن الذي حاول اختراق موكب الرئيس ليضع في يده ورقة كتب عليها حلمه البسيط من هذه الدنيا، فالاقتراب من هؤلاء الناس يحتاج لترتيبات أخرى لا تنحصر فقط في تلك البدلة الفاخرة التي أرتديها -هم بشر مثلنا بالطبع- لكن هالة السلطة الفخمة التي تشع من عيونهم، لا ينالها إلا من حالفه الحظ ليعيش تحت وطأة هذه الأضواء التي يجتمع عليها الناس كالذباب..

وقفنا ثابتين في أماكننا عندما رفع العلم الأمريكي، أثناء عزف الفرقة الموسيقية السلامين الوطنيين المصري، ثم الأمريكي، إلا الكلب الأبيض الصغير هو وحده من كان يتحرك بين أرجلنا في كل مكان.. بعدها ألقت السفيرة الأمريكية مارجريت سكوبي كلمة باللغة الانجليزية، واعتذرت عن ذلك قائلة: إنها لا تزال تدرس العربية، ولم تتمكن بعد من إتقانها لدرجة إلقاء كلمة بها، ووعدت أن تكون كلمتها بالعربية في احتفال العام القادم، رحبت بالضيوف، ثم تحدثت عن مجد الولايات المتحدة الأمريكية، وعن يوم الاستقلال العظيم الذي فيه انفصلت عن التاج البريطاني،شكرت الحضور وتمنت لهم سهرة ممتعة..كان الحفل منظماً للغاية بشكل لافت للنظر، فترى المصورين كأنهم يسيرون على قضبان حديدية تحدد مسارهم داخل السفارة،فتبتعد عدساتهم عن القبلات الجانبية للمصافحين والمصافحات، وعن زجاجات الخمر التي تنتشر بالمكان كالأنفلونزا، والبوفيه الضخم الذي يكفي لإطعام حي بأكمله، فشعرت أنها مهمة رسمية مفروضة وليست حفلاً بالمعنى المعروف، ولعل السبب في ذلك هو تحفظ كل الحاضرين خوفاً من أن تناله لقطة مصور شارد، فتحول حياته إلى جحيم، لكن كلب السفيرة الذي كان مايزال يتنزه هنا وهناك كأنه صاحب الحفل هو من فاز بتلك المتعة التي حرم منها الكثيرون..

خرجت سحر من بينهم وتقدمت نحوي قائلة بنبرة مرتفعة (يوسف.. انت ليه واقف بعيد؟تعال اعرفك على أصدقائي) سحبتني من يدي لتدخل بي وسط الأجساد التي تبرق بالأحلام البعيدة، بعيدة جداً كما أضواء المدن الأخرى التي نراها من شاطئ مظلم نقف أمامه لنستنشق بعضاً مما تحمله دفعات الهواء إلينا من أنفاس ساكنيها.. توقفت بي أمام مجموعة من الحاضرين، أشارت بيدها نحوي وبلهجة لم أسمعها منها من قبل قدمتني إليهم (يوسف رشاد.. المحامي بتاعي)،وقعت الكلمة على أذني فامتعضت للحظات لكني تجاهلت ذلك عندما انتقلت بيدها ناحيتهم وبلهجة أخرى غريبة لم تختلف كثيراً عن لهجتها السابقة بدأت في تقديمهم إليّ (الكاتب المشاغب علي سالم)..فهز رأسه مبتسماً،(الصحفية الجميلة حلا مرتضى) فأزاحت شعرها للخلف ثم تمتمت مرحبة، لكن قبل أن ترفع يدها لتعرفني بمن كان يقف على اليسار كان هو قد مد يده إليّ ليصافحني بحرارة أراحتني (البروفسير العظيم ساسون سوميخ) فشعرت بصدمة لهول المفاجأة، ها أنا قد وضعت يدي في يد رجل إسرائيلي بالفعل.. رددت ذلك على نفسي وأنا أحرك أصابعي داخل قبضة يده غير مصدق، كان أبي يقف أمامي في تلك اللحظة مرتدياً زيه العسكري كاملاً، مشهراً سلاحه في وجهي وأنا أسأله خجلاً عن عدد من قتلهم من جنود إسرائيل، لكنه لم يجب وسدد إليّ رصاصة اخترقت رأسي، ثم أشاح بوجهه عني، وشق طريقه

بخطوات حثيثة إلى الخارج، كدت أسقط بالفعل لكني تظاهرت بالتماسك، فلاحظ ساسون ارتباكي فقال مازحاً:

-أبشر يا رجل. أصبحت الآن من المتطبعين لأنك صافحتني.

ارتفعت ضحكاتهم جميعاً، وانسقت معهم للضحك، كي أنسى تلك البلية التي لن أسلم من شرها. كنت أعلم ذلك جيداً، ورغم ذلك تماديت في الضحك حتى أن رأيت كل الأشياء تتراقص حولي، وتنقلب على أعقابها، فاستطرد ساسون قائلاً بعد أن رسم على وجهه المجعد الذي تعتليه باقة من الشعر الفضي حالة من الجد:

-صديقي.. لا تقلق فأنا إلى الآن لا أفهم ماذا تعني كلمة تطبيع.. بعض أصدقائنا هنا في مصر المحروسة جعلوا هذا المصطلح بعبعاً يخيفون به العصافير والبشر جميعاً، أما نحن فكنا قبل ثلاثين عاماً نتطلع إلى علاقات طبيعية تنشأ بين شعبينا لا إلى"التطبيع" فلما دخلت تلك الكلمة هجرناها وهيهات أن تجد من يستعملها عندنا، أما المصريون-أو بعضهم-مازالوا يصرون أن التطبيع هو الطامة الكبرى..

صمت قليلاً بعد أن أخذ نفساً من غليونه، ثم استأنف حديثه:

-خذ هذا المثل..قبل أشهر ترجمت مجموعة شعرية رائعة لصديقتك سحر شاهين، وكنت أتوقع ردود فعل مشجعة من الإخوان المصريين لكني تفاجأت بل صدمت حينما أبلغني صديق مصري بأن جرائد القاهرة غاصة بالمقالات التي تتهمني بجريمة التطبيع

النكراء، فقل لي يا صديقي إلى أين نحن ماضون، فهل أتوقف عن الترجمة لأرضي البشر والحجر هنا؟

فنظرت إليه باحثاً عن إجابة، لكن كان يجب أن أرد بأي شيء يخرجني من صمتي هذا، في تلك اللحظة بالذات لا يجب أن ينحبس صوتي أبداً:

- الإسرائيليون اهتموا بترجمة الأدب العربي حتى من قبل قيام دولة إسرائيل، ودون أخذ موافقة من أحد، فلماذا تتوقف إذن؟

هز رأسه منبهراً بإجابتي، فدس يده في جيبه، ثم سحب نفساً آخر من غليونه قبل أن يهم بالإجابة:

-أنا أهتم بترجمة الأدب العربي الحديث لأنه ضرورة حياتية لكل مثقف إسرائيلي، ولكل قارئ إسرائيلي نبيه، إذ من دون إطلاعه على التيارات الأدبية فإن معلوماته عن الإنسان العربي وعن عالمه ستكون مشوهة، ومرتكزة على المعلومات الصحافية اليومية غير العميقة، ويتعلم القارئ الإسرائيلي عن طريق مطالعة الأعمال الأدبية العربية في مجال الرواية والمسرح والشعر كثيرا من المفاهيم النفسية للإنسان في القاهرة وفي دمشق وفي بيروت وبغداد، وحتى في الريف المصري واللبناني والسوري وهلم جرا، ويتعرف بهذه الوسيلة على مشاكل ومتاعب الأديب العربي والإنسان العادي في نفس الوقت، لكنكم ترفضون بكل قوة أن نعرفكم، أو حتى تعرفونا وهذا محبط حقاً.

هنا تدخلت حلا مرتضى في الحوار، وبأسلوب ساخر تحدثت:

-أرجوك لا تذكرني.. فما حدث معي هو مهزلة مضحكة بكل المقاييس..

جذبت انتباهنا إلى حديثها، فنظرت إليها مبدياً اهتمامي، وتركتها دون تدخل لتكمل حديثها:

-قمت باستقبال السفير الإسرائيلي بمكتبي بالمؤسسة لتدارس خطة أوباما القادمة، وبعلم الخارجية المصرية -يعني مهمة رسمية- ورغم أن السفير ذاته قد زار المؤسسة أكثر من مرة إلا أن القيامة قامت عندي أنا، تحقيقات بالنقابة، وتساؤلات، وتهديدات بمجلس تأديب، وهجوم في الصحف، وكأنها سابقة لم تحدث من قبل، و...

أراد أن يتدخل علي سالم في تلك اللحظة لكن قاطعه ساسون وكأن هناك ما طفا برأسه في تلك اللحظة :

-الغريب في الأمر، بل والمحير أنني عندما ترجمت أعمال صديقي نجيب محفوظ لم أسمع نفساً واحداً يعترضني، بل وكنت أزوره بشكل اعتيادي بمنزله وألتقي بالكثير من المثقفين، ونتبادل الأحاديث عن حلمنا في السلام بين الشعبين، وقدمت لهم الدعوة لزيارة إسرائيل، ولكن المدهش أن منهم من يحاربني الآن..

أنهى حديثه وأشار لعلي سالم بالحديث، فابتسم له وبلهجة رزينة بدأ كلامه:

-سخف حقاً أن يخضعوا أفكارنا للسياسات التي تعمل في الظلام، فأهم الشعارات التي يرفعها مقاومو التطبيع بأنه الورقة الأخيرة التي يحتفظون بها للضغط على إسرائيل للمضي قدماً في عملية السلام، أي أن رفضهم للتطبيع ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة للوصول للهدف، وتلك طريقة باتت مكشوفة للجميع، فأبي كان شرطياً ينفذ كل الأوامر التي تملى عليه، وكنت أستغرب أنه يتحول في نظري كل يوم إلى أداة في يد النظام الاشتراكي العظيم، والذي لا يمنحه إلا فتاتا نعيش به أنا وأسرتي، فعشت كارهاً تلك الأنانية التي تستأثر لنفسها بكل شيء وتحول كل من حولها إلى كائنات آلية لخدمتها، ورغم أن أخي الأكبر سقط في حرب ٤٨ إلا أنني لم أشعر يوماً أنه كان يؤدي عملاً عظيماً..

فرفعت طرف عيني إليه مستغرباً، فنظر إليّ مكرراً ما قاله:

-نعم لم أشعر أنه كان يؤدي عملاً عظيماً..فالحرب ليست عملاً عظيماً أبداً، لك أن تتخيل لو كان عاد بالنصر للملك فاسد يحكم البلاد فماذا كان سيحدث؟ فقرار فاسد بالحرب، من نظام فاسد لا يعتبر عملاً عظيماً،فمن قتل أخي هو شعب أصر ألا يتخلص من تلك الأنظمة، من قتل أخي هو ضعفنا ..

لم أسمع كلاماً كهذا أبداً من قبل، لذلك أردت أن أوقفه لكنه غلبني باسترساله القوي الذي ينصت إليه الجميع:

-فعندما وقع السادات معاهدة كامب ديفيد شعرت أن حق أخي قد عاد مع الأرض، وأيقنت أن السلام هو البديل الوحيد الذي

يحفظ ماء وجهنا، أيدته بشده وظللت أفكر في اللحظة التي أنفلت فيها للجانب الآخر الذي صنعنا منه عدواً كبيراً، لأتلمس هؤلاء عن قرب، فأنا مسرحي تعودت على المواجهة، ولا أقتنع بنجاح دوري إلا إذا لمحته على وجوه جمهوري، فبعد معاهدة أوسلو ٩٣كبرت الفكرة برأسي خصوصاً بعد دعوة ساسون لي في إحدى لقاءاتنا ببيت نجيب محفوظ، فتعمدت أن أخوض الرحلة بسيارتي الخاصة لأكتشف هذا العالم بنفسي، وعندما بححت في ذلك تنقلت بين المدن الإسرائيلية (يافا.. حيفا.. بير سبع.. ناتانيا.. تل أبيب) لكني لم أجد هذا الوحش الذي يخيفنا. رأيت بشراً مثلنا بأنوف وأفواه، وأرجل، وأياد، فعدت مقتنعاً تماماً أن هذا الوحش يعيش داخلنا، فواجهت ..

أوقف حديثه وأحنى رأسه لأسفل حتى بانت صلعته كاملة، ثم رفعها قاطعاً شروده:

– واجهت الكثير من التفاهات التي يواجهها كل من تسول له نفسه بأن يقترب من تلك المنطقة، فمثلاً في مجال الفن الذي أنتمي إليه إذا اشترك ممثل مصري في فيلم أمريكي شاركت فيه ممثلة أو ممثل إسرائيلي، على الفور ترتفع الصيحة وترتفع معها المطرقة: إلحق.. مطبعاتي.. إلحقي يا نقابة.. حققوا معه.. ارفدوه.. وعلى الفور يظهر مسئول النقابة: طبعاً هو احنا هنسيبه..؟ إذا اتضح أنه كان يعرف أنها إسرائيلية، ومثل معها في فيلم واحد، أو حتى في

مشهد واحد، فسنقوم بفصله على الفور.. يجب ألا نضحي بالشعب الفلسطيني من أجل النجومية العالمية..

أوقف حديثه للمرة الثانية، وأطلق تنهيدة عميقة أظهرت تألمه، ثم قال بلهجة مازحة غيرت طبيعة الحوار:

-دعونا من هذا الآن.. هؤلاء الحمقى سيفسدون علينا لحظاتنا الجميلة، هم ينعمون في بيوقم ونحن هنا نحرق دماءنا .. هيا بنا إلى البوفيه لنفترس الديك الرومي (قبل ما يشطب عليه الأمريكان..)

ضحكنا كثيراً.. لكن سحر كانت ترقب الحوار في صمت، ربما تعمدت ذلك كي أتلقى ''الكورس'' كاملاً دون تدخل منها، اتجهنا ناحية البوفيه، لم تكن لدى رغبة في الطعام، فأمسكت الطبق في يدي ووضعت فيها قليلاً من السلطة الخضراء، متجاهلاً بذلك الديك الرومي الضخم الذي تهافتت عليه الأيدى من كل صوب...

وقفت أمارس متعة التفرج من بعيد، مَن يضحك، مَن تضحك، مَن يبتسم، مَن تبتسم، مَن يتحدث بكل حواسه منفعلاً، مَن تحرك شفتيها في سكون، مَن يجلس شارداً منتظراً اللحظة التي ينضم فيها إليهم، مَن تتحرك هنا وهناك توزع الكلمات،والحلوى، مَن يسحب نفساً من سيجاره الغليظ، من تدفع دخان سيجارتها من بين شفتيها لتعكر الهواء، حملت سحر كأساً من نبيذ ووقفت جواري متسائله بعد أن علقت نظرها نحوهم (مقلتليش..ايه رأيك في الجو ده؟) التفت إليها قائلاً بنبرة خافتة، وكأني أرى لصوتي لوناً باهتاً كتلك

الألوان المنتشرة من حولي (ممكن نمشي من هنا؟) لكن قبل أن تجيب انطلقت صيحة نسائية مدوية جذبت الأنظار إليها، كانت صديقتها حلا مرتضى تحمل كلب السفيرة الأمريكية بين يديها مداعبة (ئي جميلة..ايه العسل ده)، هدهدته لأعلى عدة مرات ثم قربته من فمها وطبعت على رأسه قبلة حانية وسط برود الحاضرين..

كنت أنا الوحيد الذي اندهش لتلك القبلة الغريبة، لدرجة جعلتني أظن بأن حياتي التي أعيشها هي حياة شاذة، لم أر من خلالها أية حياة أخرى قط، أو أناس آخرين.. يطلعون على عوراتنا ولا نراهم، يسخرون من أفعالنا فلا نسمع ضحكاتهم، فقط نرفع لهم أعيننا برهبة، ونتساقط تحت أقدامهم العريضة كالبراغيث، التي أتت لتشم رائحة اللحم المشوي المنبعث من نوافذهم الشاسعة، أو كقطط ضالة خلقت لتأكل وتشرب وتكتسي من بقاياهم القذرة.. اقشعر بدني، وكدت أن أخرج كل ما في معدتي من طعام. فالتفت لسحر مرة أخرى وكررت عليها طلبي بلهجة حادة لم تستغربها (ممكن نمشي من هنا؟) تغيرت ملامحها، ثم هزت رأسها بالموافقة ..

كنت على يقين بأن تلك الحياة التي اختاروها لي ستنتهي، أو آن لها أن تنتهي، وتتكسر وتصير كبلورات بيضاء تلمع في عيني فأتحسر على أيام قضيتها حبيسا في سلطانهم لسنوات طوال، فلم أشعر بعذابات الضمير ولا بلوم النفس، بل كنت مرتاحاً كمن شفي من مرض عضال، إلا أن ذكرى الأشياء والكلمات قد وقفت كشلال منهار يفصلني عن بقاياهم، فبات صوتي مخنوقاً تحت ركام الماء، فقط أرى الجدران من حولي مرايا لا ترحم، فأتمزق عليها لأعيش في بؤرة العدم، فتمنيت أن أكون حفنة تراب تتسرب من بين أصابع عملاق أحمق أبى أن ينثرها في الهواء، لأرتاح ويرتاح كل من يتعلق برقبتي طامحاً في العيش من فتاتي، بحثت عنهم في كل مكان لأقطع الهسيس المتشعب داخلي كجذور الأرض، لكن لا شيء يؤرق تلك الجمادات إلا أنفاسي الهائمة، لكني لم أقرر الموت بعد، فقررت أن أحيا ساعات أخرى لأشاهد نهايتهم ثم أعود إلى هنا لأحرق ما تبقى لي من أوراق تحمل اسمي ممزوجاً بأسمائهم، وتاريخ ميلادي، وفصيلة دمي، ولون عيوني، ورقم حظي الذي رافقني كالظل.. دلفت إلى غرفة النوم لأستلقي وحيداً في فراش مكسو بالثلج، وغطاء تشتعل فيه النار، فدقت رأسي أفكار عدة، وتساؤلات عدة، وفقاعات تتوالى، فلا تبقى طويلاً حتى تنفجر بكل حواسي.. أردت أن أتحدث إليهم، أن أبكي بينهم، أن أفرد كفي في الهواء ليشعروا

بوجودي، لكني ظللت وحيداً منكمشاً كجنين ينتظر يداً تجذبه للنور..

أزحت الغطاء، قفزت من السرير، هرعت إلى باب الغرفة.. باب الشقة، هبطت السلم حافي القدمين، وطرقت باب أبي، طرقات.. طرقات.. طرقات لكن لا مجيب،فصعدت إلى شقتي، عدت إلى غرفة النوم قلبت البنطال المهمل على أحد المقاعد،أخرجت مفاتيحي، هبطت السلم مرة أخرى حافي القدمين،فتحت الباب المغلق، واندفعت إلى الصالة، نظرت لكل شيء يدور من حولي وأردت أن أصرخ بأعلى صوتي (أين أنتم؟.. لماذا لا تتحدثون معي؟لماذا لا تسمعوني؟)،فظللت أبحث تحت المقاعد،وفي الجوارير،وخلف الستائر-هي رغبة فقط في البحث- فأتاني صوت أبي الذي يجلس في الظلام (بتدور على ايه يا يوسف؟ على نفسك ولا علينا؟) كان ضوء خافت يسقط على وجهه فبانت ملامحه ممتزجة بالظل، تحركت تجاهه، وعلى بعد خطوتين توقفت، فاستأنف قائلاً (كنت معاها؟ يا ترى وخداك على فين يا يوسف؟) أحنيت رأسي لأسفل، واستدرت لأكمل بحثي عن زوجتي وابني بالداخل،فصاح قائلاً (رايح فين؟.. أنا مخلصتش كلامي)، التفت إليه ببطء شديد وبلهجة هادئة (عايز مراتي وابني) فنهض من مقعده وأشار بسبابته ناحية باب الشقة (روح اتجوزها زي ما انت عايز بس مراتك وابنك أمانة في رقبتي لغاية ما تفوق ده إذا فعلاً فوقت) هممت بتحريك شفتي

لأبادله الحوار لكنه صادر على كل كلمة يمكن أن تخرج من فمي في تلك اللحظة، فعاد يشير بسبابته إلى الباب قائلاً بحدة (اتفضل يا أستاذ..عايزين ننام) فحدقت في وجهه طويلاً بعينين دامعتين ثم اتجهت للخارج بخطىً حثيثة، وأنا أتخم داخلي بركاناً من كلمات عجزت تماماً عن النطق بها..

وضعت حقيبة ملابسي في صندوق السيارة، وجلست أفكر إلى أين سأذهب.. إلى أين؟؟ تحركت بلاهدف أؤوي إليه، فقط كنت أقطع الشوارع، والميادين والكباري، وأقف في إشارات المرور، فتتزاحم الصور أمامي والأشكال؛ عيون تبتسم، وعيون تحب، وملامح لا أكاد أعرفها حتى تنقلب إلى ملامح أخرى، وأصوات أخرى، وقهقهات لزجة تسخر من كل أفعالي، شعرت بغصة أصابت قلبي، فدست على المكبح بمنتهى القوة، فانزلقت السيارة وأحدثت صفيراً عاليا، فغيرت من اتجاه سيرها، وتوقفت تماماً، صفعت المقود بيدي وصرخت قائلاً (لسه مش فاهمين حاجة!) أخذت ألهث كما لو كنت أركض لأميال طوال، هدأت قليلاً ونظرت أمامي بعد أن ثارت أبواق السيارات من خلفي، فوقعت عيني على كورنيش النيل الممتد على الطريق المواجه، فشعرت أنه المكان الوحيد الذي سيحتويني،والذي يمكن أن أشكو إليه ويسمعني، ويقبلني كشريك في هذا البلد، فعدلت مساري بعد أن هدأت تماماً، وانعطفت إلى الجانب الآخر..

على مقعد خشبي متهالك جلست أطالع صفحة النيل الضاربة في عوالم مجهولة، يصل إلى أناس آخرين يكترون في قلوبهم هموماً، وأحلاماً، وآمالاً، وآلاماً، ولغات،ورقصات،وعادات لا يطغى عليها الماء، فالنيل نحات ماهر ينحت آذان الناس وأفواهم وأعينهم ويكتب القصائد، ويقرأ الجريدة اليومية.. أخرجت قلمي وعلى ورقة ملقاة على الأرض كتبت رسالتي إليه كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات يوم :

(أيها النيل العظيم ..

وددت أن أشكو إليك ما أنا فيه، أشكو إليك ما نحن فيه.. أشكو إليك دموعنا التي تنبع من أعلى الوادي، وتتحمد على رؤوس الجبال..أشكو إليك وأعلم أنك لا تسمع شكاوى الناس بعد غروب الشمس، فهل لي أن أجلس إلى جوارك حتى تشرق؟.. لعل الله يرسل معك شمساً أخرى غير تلك الشمس ..)

طبعت توقيعي أسفل الرسالة، ثم ألقيت بها في الماء.. نظرت إلى الضوء المنبعث من عربات (البطاطا والحمص والذرة) وشعرت بدفء لم أذقه إلا عندما كنت صغيراً في حضن أمي، فألفت وجوه الباعة وتعايشت مع أحلامهم الصغيرة التي تدلت من أعينهم اللامعة بالطيبة، فآنست روحي الصفاء، وكأن هناك من يترع همومي من صدري ويقذفها بعيداً حتى أني نسيت كل ما مضى في تلك اللحظة، فأيقنت أن النيل قد رأف بحالي و قرأ رسالتي الآن، و لم

ينتظر حتى الصباح ليمدني بتلك الراحة التي لم أكن أصل إليها إلا بالموت...

كانت دندنات عود تصل إلى مسامعي من مقعد مجاور يلتف حوله باعة (الحمص والبطاطا والذرة)، والكثير من المارة وعمال النظافة، فلم أتمكن من رؤية هذا الرجل الذي كان يغني بصوت دافئ يجذب القلب، وتحن له المشاعر، فأسرعت الخطى لأنضم إلى الحلقة مردداً معهم بابتهاج شديد (حب الوطن فرض عليه..أفديه بروحي وعنيا) كان شيخاً من يعزف ويغني مرتكزاً على عوده، يضرب بريشته على الأوتار، ويحرك أصابعه المجعدة عليها بخفة بهرتني، رمقني بنظرة حانية جعلتني أنساب بينهم دون أدنى مقاومة، فالغناء للوطن حياة.. الغناء للوطن وطن آخر يحيا داخلنا.. الغناء للوطن هو أنا وأنت وهؤلاء الناس البسطاء ..

رافقني الشيخ برحلتي على الكورنيش بعد أن رحلوا عنا جميعاً، كانت ملابسه شبه الممزقة، وذقنه البيضاء الطويلة، وشعره الناعم المنكوش، وقسمات وجهه القديمة، لا تشي أبداً عن كلامه المرتب، وانطلاقه اللافت، ومعلوماته الغزيرة، أخذنا الحديث عن أسماء كبيرة مضت، وأبطال وتواريخ وحكايات، وسير، كان يحكي كأنه عاش بتلك الشوارع جميعها، واطلع على الشقوق والأزقة والحجارة، فيتحدث بمنطق يهز العقل، ويخضع له الوجدان، فشجعني ذلك على سرد حكايتي، فظل منصتاً لأكثر من ساعتين، ينظر إليّ بوجه أشبه

برؤيا جميلة تتمنى ألا تستيقظ منها أبداً، وعندما انتهيت ربت على كتفي قائلاً:

-أتى رجل إلى هنا منذ أعوام طويلة مضت، يبحث عن جدران أربعة تضمنا جميعاً، لكن الموت لم ينتظره كثيراً، فرحل وترك خلفه رسائله، علها تصل إلينا يوماً ما، لترفع بها قواعد البناء الذي أفنى عمره كله دون أن يكتمل..ربما دسها صاحب الهدايا في صندوق بريدك لتصلك تلك الحقيقة.

وقفت مندهشا فاغراً فاهي، وأنا أحاول الوصول إلى ما يرمي إليه، وانتبهت في لحظة إلى كلماته الأخيرة، فانطلقت قائلاً وأنا أشير نحوه بسبابتي:

-الرواية؟! تقصد الرواية؟! (هكذا كنت أكرر عليه السؤال)

فأجابني بصوت ملأ عليّ المكان:

-ابحث عنها .. وستجدها نائمة في فراشك يوماً ما.

فبلعت ريقي وتسمرت في مكاني مذهولاً،فحدق في وجهي مبتسماً، أو ساخراً، أو شامتاً، أو.. لا أعلم، ولا يهمني أن أعلم.. بينما كنت أحاول استجماع قواي المتبعثرة أمامه، فانصرف عني طارحاً خلفه الضباب، ناديته كثيراً لكن دون جدوى ..

وقفت أتأمل الوجوه الصباحية الشاحبة لهؤلاء الناس، وأنا أفكر في أمر هذا الشيخ العجوز، هل من الممكن أن تكون تلك هي الإشارات التي يرسلها إليّ الله؟ أم هي أضغاث أوهام لا يراها إلا

أنا؟ فظللت أبحث في نفسي عن إجابات وأشياء أخرى إن بدت لي سيرحل عني هذا الهم الذي سقط فوق رأسي من حيث لا أعلم، قال لي جدي ذات يوم، عندما كان يحمل كتابه القديم بين يديه "نحن من نجيد صنع المصائب العظام لأنفسنا، لكننا لا نجيد البحث عن حلول لها، بل دائما ما ننتظر من يأتي إلينا بالفرج ملفوفاً في أوراق السوليفان"، قدت سيارتي متجهاً إلى المكتب، كانت حركة غير عادية تجري بالشارع؛زحام شديد، أصوات لسارينات الشرطة، والمطافي والإسعاف تتقاطع هنا وهناك،وأنباء تصل مسامعي من أفواه المارة عن تظاهرة كبيرة أمام مجلس الوزراء، حاولت أن أهرب من تلك الورطة المرورية لكني لم أستطع، فالسيارات تدفعني ببطء شديد رغماً عني ولا خلاص إلا بعبور الميدان،فمررت بأناس يرفعون الأطباق والملاعق الفارغة وكأني أتنزه في بلاد العجائب، أعيش فيها يوميات غريبة، وأطالع بشراً آخرين غيرنا، فتلك البلاد ليست كبلادي، بل هي بلاد أخرى سقطت فيها سهواً لأتفرج من بعيد مختبئاً وراء جدار،فكانت هتافات تعلو كلما اقتربت (غـــلوا الســـكر غلوا الـــزيت..خلـــونا بعنـــا عفـــش البيـــت) يعانون الجوع وخزائن يوسف ما زالت تكتز لهم القمح، والشعير، والماء..؟! انتفض جسدي عندما صور لي ابني يقف كهيكل عظمي يمد يده للعالم من خلف شاشة التلفاز طالباً لقمة عيش، فامتلأت عيني بالدموع على حال بلد تغرق أمام رجل أبتر وقف عاجزاً عن انتشالها من الموت، أشحت بوجهي عنهم حتى قطعت الشارع بألف

سؤال وسؤال.. فكيف لثورة أن تقوم بلا قائد يعرفه الصغير قبل الكبير، ويضحي الجميع بأرواحهم من أجله، فإن نجحت ثورته تكون قد حركت ساكناً على الأقل، وإن فشلت يسجن، أو يعدم أمام شعبه، أو ينفى إلى بلاد بعيدة يكتب فيها قصائده التي يتغنى بها التاريخ، فثورة بلا قائد، وبلا نتائج ما هي إلا لعبة أطفال تكسر بمجرد انتهاء اللعب، فالثورة رجال ونساء وأطفال وشوارع وبيوت، وليل ونهار، وأرض وسماء، وشمس وقمر.. الثورة إيمان.. الثورة عنوان.. الثورة حياة، أو موت..

كان المكتب خالياً إلا من عم مصطفى هذا الرجل الوفي الذي التصق ببيتنا بإخلاص يجعلك إذا نظرت إلى وجهه الأسمر تشعر بأصالة وطيبة ونبوءة بخير قادم مع أشرعة الجنوب، ألقيت عليه التحية ودخلت إلى غرفتي بعدما لاحظت غياب السكرتيرة، جلست على المقعد الجلدي برأس يعاني من صداع شديد جعلني لا أفكر في أي شيء آخر إلا في هذا الألم الذي ينخر الصمت اللعين الذي ملأ عليّ حياتي، فلا أحتمل النور، ولا حتى الكلام، فقط أردت أن أسترخي لأعيد ترتيب أوراق ليلة وضحاها مرت عليّ كعمر قصير، دخلت إليها وخرجت منها محملاً بالهم.. دخل مصطفى حاملاً فنجان القهوة، أشرت له بأن يضعه على الطاولة، ثم سألته بلهجة متعبة: (السكرتيرة غايبة ليه النهارده؟) فوقف متردداً للحظات ثم أجاب بصوت منخفض (هملت المكتب وبتقول إنها مش راجعة تاني) فصفعت منفضة السجائر في الحائط المواجه فتهشمت وتناثرت، وتلفظت بحدة (تغور في ستين داهية بنت الكلب)

فوضع رأسه في الأرض ولم يعلق بكلمة واحدة، فشعرت أن ما فعلته لا يليق بوجود رجل كبير مثله، فوضعت يدي على رأسي، ونظرت إليه قائلاً بخجل (آسف يا عم مصطفى.. أنا تعبان ومنمتش من امبارح) فرفع طرف عينه وبنبرة حانية (ميهمكش يا ابني.. بس انا جاي النهارده عشان أقول لك إن أبوك حرّج عليا اشتغل معاك، وانت عارف إني مقدرش اخالفه) أغمضت عيني لأرى وشاحاً من سواد يلف جسدي كله، ولا ثغرا لنور أنفذ منه ليحررني من نفسي تلك العنيدة، نظرت إليه وهززت رأسي متفهماً، فتقدم نحوي ومسح على صدري قائلاً بحزن (لو احتاجتني في حاجة هتلاقيني جنبك.. المهم تخلي بالك من نفسك يا ولدي)،ربت على كفه عدة مرات، وطلبت منه أن يغادر المكتب كي لا أحصره بين مطرقتي وسندان أبي .. الآن قد أصبحنا وجهاً لوجه نقف على خط واحد نرقص بين نارين.. نرقص، ونرقص على تلك الأنغام العربية، ومن يسقط.. يسقط في النار،سنرقص حتى الموت، ومن ينجو سيعيش بقلب من الماس بلجيكي يغري عيون الناس لكنه أبداً لن يشعر..لن تشعر بقلوب من لحم تنبض في صدور مثقلة بالحجارة، فيدوم الصخب وتعزف التماثيل ألحاناً جنائزية للأكفان التي رحلت من هنا، وعادت كما هي مومياوات ملفوفة في الكتان، بملامح من شمع لا ترقد فيها الدماء، فنتوقف لفتح التوابيت ونغرس في قلوبهم أوتادا من خشب؛ لنضمن لهم الزوال من ديارنا، فتكون هشيما يذهب مع صفحات الماء، ولا يعود أبداً بعد اليوم.. وستكف النغمات حتماً، وتتوقف نوبات الرقص الماجن، وسأظل أبحث عن مأوى .. عن سُكنى.. عن بيت .

-٤-

كان صديقي محمد فتحي جالساً على كرسي بلاستيكي مسنداً ظهره للحائط، وأمامه طاولة حديدية مرتفعة عليها كوب من الشاي وكوب آخر من الماء، فابتسم عندما رآني قادماً من منتصف الشارع الضيق، وقام من مكانه ليستقبلني مصافحاً ومرحباً ومعانقاً، كنت سعيداً جداً بتلك الحفاوة التي أعادت لي بعضا من ثقتي بأن هناك من يتقبل رائحتي بعد، تطلعت في الواجهة الرخامية (زهرة البستان..ملتقى الأدباء والفنانين) أخذت كرسياً للجلوس في مواجهته، ثم أجلت نظري بين الجالسين في الكراسي البلاستيكية الملونة على جانبي الرصيف، وفي المنتصف، وداخل المقهى الذي لا يتسع إلا للقليل منهم، وعشت إحساساً مختلفاً رغم بساطة المكان الذي لا يزيد عن كونه مقهى بلديا متواضعا جداً، إلا أن نظرات مرتاديه من الشباب والفتيات والقليل من الشياب وأسلوب تبادل الأحاديث بينهم، وملابسهم، وتحركاتهم المتشابهة التي تنحصر في جذب أنفاس الشيشة، ولعب الطاولة، وشرب الشاي، والقهوة، والمياة الغازية، والضغط على أزرار المحمول بلا هدف، أو مطالعة صفحات كتاب، كل ذلك يبث انطباعاً غريباً عن حرية أخرى لا نعرفها، ولا نلمسها في شوارعنا العامرة بالبشر، فكل منهم جاء يحمل داخله فكرة يعيش عليها، دون الوقوف طويلاً على أفكار الآخرين.. سألني فتحي عما سوف أشربه، فحدقت في وجهه غير

مهتم بسؤاله، وتحدثت إليه بنبرة متألمة (كنت منتظر اتصالك ده بفارغ الصبر بعد ما الكل اتخلى عني يا محمد..) فشبك أصابعه وأخذ يحك إبهامه الأيمن بالأيسر، ثم أردف قائلاً (أكيد السبب هو موقفك من سحر شاهين) خفضت رأسي و لم أنطق بكلمة واحدة، فعاد يتحدث:

-يذكرني موقفك هذا بأنصار البرادعي مرشح الرئاسة. هم يؤيدونه نكاية في النظام، وأنت تؤيد سحر نكاية في أهلك.

رمقته بنظرة حادة، ثم سألته مستنكراً:

-وما دخل هذا بذاك؟

فابتسم ساخراً ، ثم ألقى بالسؤال:

-هل قرأت قصائدها يا يوسف؟

فأجبته بغيظ:

-نعم..

ترددت قليلاً، ثم أنقذت الموقف بإجابة أخرى..

-أقصد.. بعضاً منها.

فعاد يبتسم، وبنبرة واثقة :

-لا أظن أنك قرأت لها حرفاً واحداً.

- لم أفهم بعد.. ما علاقة موقفي هذا بأنصار البرادعي؟!

فظل محتفظاً بابتسامته المستفزة، وهو يجذب حقيبته السوداء، واضعاً إياها على الطاولة، ثم أخرج منها كتاباً طبع عليه صورتها كغلاف براق لأنثى جميلة، رفعه في وجهي متسائلاً:

-هل رأيت هذا الكتاب من قبل؟

مكثت صامتاً بينما كنت أعلق بصري بالكتاب، فاستطرد قائلاً:

-اقرأ العنوان من فضلك.. بصوت مسموع..

فاستجبت لطلبه مندهشاً للطريقة التي يُجري بها الحوار:

- مكان آخر ؟! (هكذا قرأت)

فحرك رأسه تباعاً لأعلى وأسفل :

-إذن دعني أقرأ لك ما لم تقرأه بعد..

لم ينتظر موافقة مني، ولو بإيماءة واحدة تعبر عن رغبتي في ذلك، ثم أخذ يلقي على مسامعي:

في المكان الآخر أتنزه بين تماثيل من ثلج

ينحتها الأطفال هنا في الطرقات صباحاً

لا أراها تنظر إليّ كتلك الدمى البلاستيكية الملساء

كنت أقف أمامها في فتارين وسط البلد

تشبه قسماتهم الزائفة عندما يكسونها من ملابسهم

أتفرج عليها من بعيد لكني لا أجرؤ أن أخرج

حافظتي الفارغة لأشتري منها ما يسد مزقة في ثيابي..

خبأتها بحقيبتي الجلدية الرديئة..

في المكان الآخر ..

أحمل مئات من حقائبي الجلدية

تناسب لون أحذيتي وفساتيني المدللة

أتنزه خلف فتارين (Bond Street) المضيئة

يصدمني أحدهم يقف داخلها عارياً إلا من رابطة العنق..

يبيع ملامحه القديمة ليشتري قطعة لحم وكأس نبيذ..

أرفع حقيبتي الجلدية الفاخرة للسماء

و أداري وجهي ..

وضعت عليه المساحيق المبيضة ونظارتي السوداء..

لأخفي ملامحي التي تشبه مكانا آخر تركت

فيه شرائطي الحمراء، وحذائي المثقوب..

سادت لحظات هدوء بيننا حينما أنهى قراءته، فمددت يدي وأمسكت بالكتاب الذي وضعه أمامه على الطاولة، وأخذت أقلب الصفحات، وأمعن النظر لصورة الأنثى الوديعة التي تتصدر الغلاف، شعرها.. عيناها.. ابتسامتها.. أنفاسها التي تصلني مع رائحة دخان شيشة التفاح، وددت لو أمد شفتي وأقبلها، أو أقف معتلياً مقعدي

معلناً لكل الجالسين أني أحبها، أخذت أتحسس اسمها المكتوب أسفل الصورة، وأنا أفكر في تلك الأمنيات العظام التي سردناها معاً عندما كنا صغار، فشعرت أنها أكبر بكثير من كونها طفلة صغيرة منحتها الأيام عمراً جديداً لتنضج وتنمو كالفاكهة التي تنتظر قطافها، وتقبع بين سرير وزوج.. أيقظني صوت صديقي الذي أصر أن يقضي ليلته منتصراً..

-لك أن تتخيل عندما يقرأ كلامها هذا مثقف إسرائيلي ماذا سيقول فينا؟.. أنا لست ضد الترجمة للعبرية، ولكن يجب أن نختار ما سنترجمه ويخدم قضيتنا لا أن يفضحنا بهذا الشكل..

-لكنهم ترجموا أعمال نجيب محفوظ بكل ما فيها من تصوير لحياة المصريين من ميزات وعيوب، و لم نسمع تلك الضجة، ربما تكون (موضة) جديدة مثلاً؟..

-يا صديقي العزيز.. تُرجمت أعمال محفوظ في ظروف خاصة، كان الاتجاه السائد فيها هو السعي لمبادرة سلام بعد حروب أنهكتنا، وفي أجواء خصومة عربية مجحفة، فكان من الطبيعي ألا يظهر من يصرخ ويقول محفوظ خائن ونحن نراهن على احتواء العدو.. لكن السؤال الذي يجب أن يطرح.. هل ترجموا أدب محفوظ وغيره من أجل عيون العرب، وقضايا السلام؟

فظللت صامتاً في انتظار الإجابة:

-نجيب محفوظ كان طوق النجاة للطائفة اليهودية عام ١٩٥٩ لأنهم اعتبروا رواية (أولاد حارتنا) محاولة فلسفية للدفاع عنهم أمام اضطهاد عبد الناصر، بعد أن تسللت المخابرات الاسرائيلية إلى عناصر هذه الطائفة فى القاهرة فوظفتها للقيام بحملة تفجيرات واسعة ضد مبان أجنبية لإحراج مصر.. وأضف إلى ذلك أنه منحهم فرصة ذهبية عند موافقته على ترجمة أعماله للعبرية لدراسة الطبقات والمجتمع المصري خصوصاً بعد عملية السلام، وذلك...؟؟

مد يده وأمسك بكوب الماء وتناول منه جرعتين، ثم استأنف حديثه:

-وذلك لخدمة أمن إسرائيل في المقام الأول والأخير، فوجود بقعة شاذة مثلها وسط جغرافيا عربية خالصة يفرض عليها هذا، لذلك هم يستعينون في تعاملهم مع المجتمعات العربية وقضايا الصراع معها، بأشكالها المختلفة بمجموعة من المؤسسات والمراكز المتخصصة في مجال الأبحاث والدراسات العربية والشرق أوسطية على المستوى العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بل وحتى الثقافي، منها على سبيل المثال لا الحصر: المركز (الأكاديمي الإسرائيلي) هنا في القاهرة، مركز (هشيلوح) في جامعة تل أبيب، ومركز (ترومان) و(فان لير) في القدس وغيرها.

وضعت الكتاب على الطاولة، وأسندت ظهري للخلف متنهداً، ثم عدت لسؤالي:

-وما علاقة هذا الكلام الكبير بموقفي من سحر،وقضية البرادعي؟.. ألا ترى أنك تخلط الأوراق،وتضعني في قالب مبالغ فيه؟ ألا ترى أنـــ ...؟؟

أومأ برأسه مبتسماً، تلك الابتسامة التي أرهقتني كثيراً، ثم قاطعني بهدوء:

-يا صديقي..أنت تدافع عن سحر دون وعي بمصالحها الشخصية التي ستعود عليها بمجرد مرورها من بوابة إسرائيل، وأنصار البرادعي يسيرون خلفه دون وعي بالأطراف الخفية التي ستستفيد من تحركاته.. أنت تدافع عن سحر من أجل سحر، وهم يناصرون البرادعي خوفاً من تكرار النظام الحاكم، فالتوريث قائم في بلدنا منذ الأزل، لكن عبد الناصر لم يورث خوفاً من سقوط مبادىء ثورته، والسادات كان يظن أنه سيعيش مدى الحياة.. أما الآن فهناك ترتيبات أخرى وستنتهي رغم أنف الجميع..

-لكن سحر تتحدث بوعي كامل، وتستند إلى كلام معقول جداً ينتقد ما نحن فيه الآن من فساد سلطوي واجتماعي، وتكتب عن ...؟؟

-أنظر للكفة الأخرى يا يوسف.. هي تنتقد وتتحدث بكلام يمس صلب الحقيقة الواقعة، لكن في مقابل ماذا يا ترى؟.. إصلاح حال الوطن؟ نصرة الفقراء والجياع؟ مستقبل أفضل للبلد؟ أجب يا صديقي..

لم ينتظر حتى أفكر طويلاً، وعاد يتحدث متمادياً في انفعاله:

-إنها سفسطة ومنطق واحد تجيد احترافه فرق المتطبعين، وموازنة غبية تصب في قبعة يهودي ينادي بالأرض مقابل السلام.. وهم يجذبون تعاطفك بكلامهم المقنع، الذي تصفق له وتقول في نفسك (عندهم حق) والمقابل يكون إخلاء الوطن وتهجيره ليمتلئ بالخفافيش أمثالهم.. هم يريدوننا كلنا خفافيش لا نخرج إلا في الظلام يا يوسف.. اعقلها يا صديقي.

ظل يلهث عندما تطلع في ساعة يده، ثم أشار للجرسون في طلب الحساب، فاندهشت لفعله المفاجئ في إنهاء الحديث، فأشعرني أنه أتى بي إلى هنا من أجل غرض في نفسه ألقاه في وجهي وانتهى، فتساءلت:

-أتريد أن تذهب الآن؟

تطلع في ساعته مرة أخرى، وأخذ يلملم أشياءه داخل الحقيبة، فتوقف قليلاً قبل أن يمسك بالكتاب وكأنه أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، بينما كان الجرسون يقف أمامه منتظراً الحساب، فمددت يدي في جيبي لأدفع عنه، فأقصاها بحدة غريبة، وسبقني هو في إخراج النقود، بعد افتعال مشاجرة قصيرة انتهت بأن وضع النقود في يد الجرسون.. نهض من مكانه، وعلق حقيبته في كتفه ثم أجاب قائلاً:

-تأخر الوقت.. وغداً يجب أن استقل أول قطار للشرقية..

صمت قليلاً ليعطي نفسه الفرصة للتفكير في شيء ما، ثم استأنف حديثه متسائلاً:

- ما رأيك أن تأتي معي؟.. سألتقي بشخصية ربما تهمك ..

-مَن يا ترى؟!

-ستعرف عندما تقابله.. (قالها مبتسماً)

أشرت إليه بالموافقة قبل أن ألقي بنظرة أخيرة على الجالسين المتناثرين هنا وهناك، ومضيت لأعبر معه الشارع الضيق، ثم افترقنا بعدما أخذ وعداً مني بلقائه صباحاً أمام محطة مصر..

-٥-

في مكتبي الذي يشبه كهوف الفحم أسند رأسي وأنام بين دفاتري وملفاتي وكتبي، تغزو أنفي رائحة سجائر زبائني الذين رحلوا، فأشعر باشتياق لتلك الأحاديث التي كنت أجلس أمامها ملكاً يستمع لشكاوى الناس ويمنحهم الأمان عندما يقرأ عليهم تعاويذ العدل والرحمة، فيصرف عنهم العفاريت المحملة بالحديد والنار، أتمرغ في (الكنبة) الجلدية الضيقة وأصرف ذهني عن مراياهم، أعد الأرقام حتى ما لا نهاية.. أعيد العد..لكن النوم يستعصي علي فالأصوات تتراكم، والوجوه تدور حولي كشريط سينما معطوب، لا أسمع صوتاً لا أتكلم لغةً، فيرنو الصمت وترتفع تراتيل شجية لا تعرفها الموتى، تنفذ من شرنقة بيضاء، وتشق علي الجدران، لتصير وحشاً يطاردني في كل مكان.. أهرب.. أركض.. أختبئ خلف ظهر أمي، أرتجف بشدة، يقترب من جسدي الضئيل، أتكور كدودة عمياء، فيدهسني سريعاً ويرحل مختفياً في الجدار، انتفضت من مكاني ووقفت خلف النافذة الزجاجية لأطالع الشارع المظلم، فرأيت نفسي في كوة ضوء ملفوفاً في كفن، يحملني ابني على كتفيه ويسير محني الظهر.. ألقاني على الأرض، وجوار حائط مهمل بدأ في حفر القبر.. لا يشعر أنفاسي، لا يجس نبضي، لا يسمع دقات قلبي، يقذفني في الحفرة كقط نافق.. يدفنني حياً.. ويهيل على وجهي التراب دون أن يدعو الله، أو يقرأ على روحي آية ترحمني..

يدوس على قبري بقدميه.. ويرحل دون أن يلتفت للخلف.. دون أن يعنيه صراخي المكتوم، دون أن تعنيه دموعي التي أضحت بركة مالحة في منتصف الطريق..

فزعت من نومي أترنح في الظلام، في قبر أنا؟! أم أين أكون؟ ناديت أمي لتضمني إلى صدرها الحاني.. صرخت.. تخبطت في كل شيء طالبا الأمان، أمي.. أمي؟؟ الظلام يفتتني.. يملأ رئتي، ويذوب في جسدي كله، يتسع، يضيق، يتقافز حولي، يفرد ذراعيه أمامي، لا أرى شيئاً إلا سواد القلوب التي عذبتني.. حطمتني.. قتلتني بالموت البطيء.. أمي أناديك.. أمي استغيث بك.. أمي لم أعد أشم أنفاسك.. لم أعد أشم عطرك.. لم أعد أراك.. ظلام.. ظلام.. سأختنق تماماً.. أنفاسي تنتهي.. أجيبيني.. تعالي إلى هنا.. أعيديني إلى رحمك جنيناً لا يرى إلا نور الله.. الظلام.. أصرخ.. أصرخ.. أتخبط.. ينهار كل شيء.. يسقط كل شيء..دموعي.. قلبي.. ابني.. الحنين.. شيطاني..النار.. العذاب..ضحكات الناس.. صوتهم يعلو.. اللغط يزداد..شفاههم تأكلني..اصمتوا جميعكم.. اخرسوا جميعكم.. كفوا عن هذيانكم.. واتركوني كما أنا أعيش في الظلام.. أعيش في قبر حفره ابني بيديه.. خرجت إلى الصالة وأنا اتحسس الجدران، وقعت أصابعي على مكبس النور فرأيت نفسي من جديد كما أنا، إنسان يعيش في ..؟؟ ركضت كالمجنون لأضيء المصابيح، وأزيح الستائر، وأفتح النوافذ، طالت قدمي كل مكان، لمست يدي كل شيء.. تعثرت.. سقطت على الأرض.. تكوم جسدي بركن بعيد في انتظار الصباح..

في القطار أسندت رأسي للنافذة الزجاجية، يداهمني صداع رهيب، فكم أتمنى أن تغفل عيني ولو للحظات قصار بعيداً عن تلك الكوابيس، نظرت لأعمدة الكهرباء التي تتوالى بسرعة فائقة والمساحات الخضراء الممتدة التي تنبطح كبساط ملكي طويل، يسير عليه الفلاحون بحميرهم، وتدور عليه السواقي، وتجري قنوات الماء، فشعرت أن هذا الوطن ليس بحقيبة نلملم فيها ملابسنا ونرحل بها إلى بلاد أخرى، فنحن من نسافر، ونحن من نهاجر، ونحن من ننسى تلك الأرض، لكنها لا تسافر، ولا تهاجر، ولا تنسانا، بل تظل تدور حولنا كي نعود..

كان (محمد فتحي) يجلس بمواجهتي يرقب تحركات الناس، فالواقفون ينظرون لأصحاب المقاعد وكأن الدنيا أعطتهم وجهها، ولن تديره عنهم أبداً، فللكرسي دائماً سحره حتى ولو كان كرسياً يتزاحم عليه الناس داخل قطار مزدحم، بدأت في جذب أطراف الحديث:

- قل لي يا محمد.. مَنْ هذا الشخص الذي نقطع من أجله كل تلك المسافة ؟!

-هو واحد قام بعمل كبير يستحق أن يدون في كتاب..

-و ماذا فعل هذا العظيم يا ترى ؟ (ساخراً)

-لا تستعجل .. ستعرف كل شيء.

شرد بعيداً ناحية النافذة، وعاد يتأمل الناس من حوله، ثم تحدث بنبرة شجية، وهو يشير إليهم بطرف عينه:

–من بين هؤلاء يولد من يضحي بروحه من أجلنا وقد يرحل عن تلك الدنيا دون أن نعلم عنه* شيئاً، أو حتى تذكره نشرة الأخبار، في يوم مر علينا كأي يوم.. صوب قناص بندقيته نحو رأس سعد إدريس حلاوة المزارع المصري البسيط، لأنه لم يتحمل أن ينهار آخر حجر في زاوية الحلم الجميل الذي عشنا عليه لسنوات طوال، وهو يسمع ويرى "إلياهو بن أليسار" أول سفير إسرائيلي يدوس على بقاياه بإطارات سيارته السوداء التي تحمل نجمة داود ويشق شوارع القاهرة حتى قصر عابدين ليقدم أوراق اعتماده للسادات..

قطع حديثه وألقى عليّ بالسؤال:

– هل سمعت عنه.. هل سمعت عن مجنون مصر الجميل؟

هززت رأسي بالنفي، وأخذني الفضول لسماع باقي الحكاية، فعاد يكمل حديثه:

– المجنون الجميل الذي أراد أن يفعل شيئاً كبيراً يقول به (لا) ليسمعها الكبار في قصورهم ثم يموت، لأنه سيكون غير صالح للحياة بعدها، فحمل بندقيته الآلية، وراح يحتجز موظفي الوحدة المحلية بقريته الصغيرة بالقليوبية، وحجزهم كرهائن ومن ذلك المكان أعلن مطالبه: أن يرحل سفيرهم عن أرضنا الطيبة، وتغلق سفارتهم بألف

قفل، ومفتاح، ومزلاج، فبكت والدته تطالبه بترك السلاح، وبح صوت شيخ القرية يذكره بحرمة ما يفعل.. فطلب منهما ألا يضيعا الوقت فإنه يعتبر نفسه شهيدًا، وأنه منذ هذه اللحظة قد أصبح "المرحوم" سعد حلاوة..فحقق القناص مطالبه وهشم برصاصه جمجمته (الناشفة) لتنشر صحف الصباح في زاوية صغيرة بصفحة الحوادث خبر إسقاط قوات الأمن لشاب مجنون تحدى أعقل عقلاء العالم الذي وضع يده بيد الشيطان طالباً منه السلام.

كانت القصة قد امتد صداها للجالسين الذين يشاركوننا نفس المقعد، والواقفين بالجوار، فرددت امرأة (الله يرحمه ويصبر قلب امه) فنظر إلي فتحي مبتسماً، فبادلته الابتسامة وكأنه أراد أن يقول لي (هذا هو الشعب الطيب الذي يستحق أن أدافع عنه!) فظللت أفكر في أمر هذا الرجل الذي رهن حياته مقابل قرار مستحيل، ألم يسأل نفسه لحظة واحدة بكم يثمنون روحه، وروح الملايين من الناس هنا؟! لو كان يعلم حل تلك المسألة الحسابية الصعبة ما فعل ذلك أبداً، وظل في بيته يغلق عليه بابه منتظراً مصيره المحتوم، الذي ننتظره الآن جميعاً مع كل طلعة شمس، راجين الله أن يمنحنا كسرة خبز، وشربة ماء، وبعضاً من زيت وملح وسكر وفول وعدس وذرة، لقد فوت على نفسه فرصة لا تعوض من الصياح في الميادين عرياناً، وجوعاناً، ومعباً بالمرض، والذل والقهر والحرمان.. فاليوم سيرأف به القناص ويتركه يعيش، لأنه هالك لا محالة ..

لم تمر الساعة حتى توقف بنا القطار في محطة الزقازيق، فغادرنا أماكننا وسرنا وسط الزحام، حتى أوصلنا التدافع إلى الباب، الآن فقط أصبحنا سواسية، فكلنا نسير على قدمين وتحملنا أرض واحدة، بعيداً عن الكراسي، والدرجات التي تفرزنا، وتصنفنا كالغربال الذي يُسقط من بين فتحاته الصغار، ويُبقي على الكبار يهدهدهم، يدللهم، ويرقص بهم في كل مكان.. غادرنا المحطة العتيقة وخرجنا إلى قلب المدينة وقفت أمام تمثال أحمد عرابي الذي يعتلي حصانه ويتوسط الميدان الفسيح وتساءلت بصوت مسموع (يا ترى يا محمد مين من جيلنا ممكن يكون له تمثال زي ده في يوم من الأيام؟) فأجابني بلهجة سريعة (زمن التماثيل ده انتهى خلاص..) كان يتلفت حوله باحثاً عن شيء ما، بعد لحظات أشار لتاكسي عابر، سأل السائق قبل أن نهم بالركوب (عايز أروح بلد اسمها الغنيمية يا أسطى) فأشار له السائق بالركوب، جلس هو بالمقعد الأمامي، وكان المقعد الخلفي من نصيبي، بدأ السائق الحديث بعد أن عرض علينا سجائره،فشكرناه لأننا لسنا من طائفة المدخنين،أبدى اندهاشه قائلاً (لأول مرة يركب معايا اتنين مفيهمش واحد بيدخن) فرد سيجارته إلى علبة السجائر ثم ألقاها على تابلوه السيارة، كان رجلاً في الستين من عمره أسمر الوجه، ذا شعر أبيض خفيف، تظهر ملامحه الجادة من تحت نظارته السميكة، التفت إليه فتحي بعد أن تأمل وجهه للحظات (عندك عيال يا حج؟) فظل منشغلاً بالطريق ثم أجاب كأنه يلقي حملاً ثقيلاً (عندي ولدين وتلات بنات وامهم.. التلات بنات سترتهم.. والولدين واحد مخلص كلية تجارة وبيشتغل كاشير في محل عصير، والتاني خريج كلية تربية وقاعد على القهوة..

والله بشوفهم باحزن عليهم يا أستاذ) فتدخلت في الحوار متسائلاً (وليه ابنك التاني مش بيساعدك ويشتغل معاك على التاكس بدل ما يقعد على القهوة؟) فأجاب مطوحاً يده للخلف (يا أستاذ الموضوع مش سهل.. ماهو محتاج يتعلم السواقة وبعد كده يطلع رخصة.. والرخصة محتاجة رشوة.. والرشوة محتاجه موظف مش نصاب.. وفين وفين لما صاحب التاكس يستأمن غشيم سواقة يشغله.. أكل العيش مر.. لو الحكومة كانت قالت لنا مش هنشغل ولادكم كنت علمتهم صنعة ياكلوا منها الشهد ويريحوني بدل ما انا شغال عند الناس وانا في السن ده.. الحكومة ضحكت علينا يا أستاذ وأكلتنا حلاوة التعليم.. وفي النهاية في الشارع.. نقتل ولادنا يعني عشان عواطلية؟! قدرنا نطفح الكوتة عشانهم طول العمر..) ألقيت نظري للطريق الأسفلتي المتعرج، والذي يشق المساحات الزراعية الخضراء، متوازياً مع ترعة ضحلة محاطة بأشجار الكافور،والصفصاف، وحجبت ألمي في قلبي حتى توقف التاكسي أمام موقف سيارات نقل صغيرة تحوي كرسيين خشبيين على جانبي الصندوق الخلفي ليجلس عليها الناس، أو هُيء لي ذلك.. أشار لنا السائق نحوها، وأخبرنا بأن تلك السيارات ستوصلنا إلى القرية المقصودة، لأنه يصعب على التاكسي أن يسير على الطريق الترابي، لكنه اقترح علينا أخذ (توك توك) لأنه سيكون أفضل من تلك السيارات..

---

*سعد إدريس حلاوة : أول شهداء التطبيع لقبه نزار قباني (بمجنون مصر الجميل) قتل يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير ١٩٨٠ بأمر مباشر من الرئيس السادات لاعتراضه على اعتماد أوراق أول سفير إسرائيلي بمصر في ذلك اليوم، فقام باحتجاز موظفين بالوحدة المحلية بقريته أجهور قليوبية، وتهديدهم بالسلاح.. الأمر الذي نقلته وسائل الإعلام فأحرج الرئيس السادات أمام أصدقائه بتل أبيب.

وبالفعل نزلنا من التاكسي، وركبنا (التوك توك) الذي اقترحه.. كان السائق شاباً صغيراً يرتدي جلباباً بلدياً،ويتحدث بلهجته الشرقاوية، كانت الأجواء لها طابع مألوف، لم يكن غريباً على النفس، بل كانت براءة منسابة تشع من كل شيء حولنا، من أعين الناس، من الأرض، والأشجار، والقنوات الصغيرة، ومن البقعة الخضراء التي تجعلك تتنفس بانتعاش غريب، فظللت صامتاً كي لا أقطع هذا التراسل الساحر الذي يتخم روحي، فيجعلني أسمع لغة المكان وأتحدث معه بلهفة كصديق غاب عني لسنوات طوال، لكن المسافات لا تنتظر، أو تطول وتقصر من أجلنا، فهي كقرار صارم لا يرتد اتخذه زعيم ليحيي شعبه.. تساءل السائق عندما شارفت منازل القرية على الظهور (رايحين فين بالغنيمية يا أساتذة؟) التفتُ لفتحي لأنه وحده من يمتلك الإجابة، فعلق بصره بعيني ثم تفوه قائلاً (رايحين لبيت أيمن حسن يا أسطى..تعرفه؟) رفع رأسه لأعلى قائلاً (إلا اعرفه.. مفيش حد في البلد اسمه ميعرفوش.. ده بطل ماجابتوش ولادة..) صمت للحظات قليلة ثم تساءل (حضراتكم من مصر؟) فأجاب فتحي مبتسماً (أيوه احنا من مصر..) صمت السائق لحظات أخرى ثم عاد يتحدث بلهجته الشرقاوية (بيقولوا العيشة هناك نار.. الله يكون في عونكم) كان قد دخل إلى حارة ضيقة، تجلس فيها النساء على مصاطب البيوت لتبادل الأحاديث، التي تمر من بين صراخ الأطفال الذين يتقافزون، ويلعبون حولهم، توقف بمنتصف الشارع وأشار إلى بيت من الطوب الأحمر (هو ده بيت

أيمن حسن)، قالها بعد أن ناولته الحساب، فأخذه بعد مناهدة طويلة صمم فيها ألا يتقاضى أجره من الضيوف، داعبه خلالها فتحي بقصة عزومة القطار الشهيرة، والتي ألصقت بهم صفة الكرم، كان البيت ذا شبابيك خشبية قصيرة، وباب بضلفتين قديم، على جانبيه رسومات غير مكتملة، وبقايا أسماء، وخطوط، وشخابيط رسمها أحدهم بالطباشير الأبيض ليصنع من الجدار صفحة تتراكم عليها ذكرى يمر عليها العابرون.. كان كل من بالشارع ينظر إلينا ككائنين هبطا من السماء بملامح لا تشبه سكان الأرض، فتلك القرى لا يزورها إلا أهلها، يخرجون منها نهاراً، ويعودون إليها ليلاً يقفون على أبوابها تتحسس وجوههم، وتشم رائحتهم، ثم تسمح لهم بالدخول، أما نحن فأجسام غريبة بلا لون أوطعم أو رائحة تعرفها الأماكن هنا، نمكث قليلاً بينهم، يتفرجون علينا ويقدمون لنا واجب الضيافة، ثم نرحل عنهم لنسكن تلك المدن البعيدة التي لا تراهم.. تقدم واحد منهم وقد حمل بيده كيساً ورقياً (قرطاس) تظهر منه حبات من ثمار الجوافة، يضع بقدميه نعلين كساهما التراب، ويرتدي قميصاً وبنطالاً متواضعين، لكن وهجاً كان يملأ أعيننا ينبعث من ملامحه الأربعينية الطيبة، فتساءل باللهجة الشرقاوية ذاتها (أكيد حضرتك الأستاذ محمد فتحي) حرك فتحي رأسه مؤكداً ظنه، فصاح الرجل بأعلى صوته، ومد يده يصافحنا (أهلا وسهلاً.. شرفتونا ونورتونا.. أنا كنت هستناكم على المحطة بالزقازيق بس مش عارف ليه يا أستاذ صممت إنك تيجي لغاية البيت لوحدك..

يا أهلا وسهلاً.. دي البلد نورت والله) بادله فتحي الترحيب قائلاً (أهلا بك يا بطل سينا..الأبطال لازم يقعدوا معززين مكرمين في بيوهم واحنا إلي ندور عليهم ونروحلهم بنفسنا) فانفرجت أساريره، واحمر وجهه، حتى وصلني خجله من وقع الكلمات على نفسه، قدمني فتحي إليه، فرحب بي بشدة ثم صحبنا معه إلى داخل المترل المتواضع إلا من حوائطه التي حملت صوره العسكرية بشكل ملحوظ، وقعت عيني على طفليه يقفان أمام باب غرفة الجلوس (الصالون) التي فتح باها ثم دعانا إليها مزيداً من ترحيبه المتواصل، تحسست شعر طفليه قبل الدخول فعقب قائلاً (دول ولادي محمد وندا) فردد فتحي (الله يبارك فيهم)، جلسنا على المقاعد التي كانت عبارة عن كنبتين استنبولي وضعت عليهما مرتبتان من القطن، مغطاتان بملائتين من القماش المزركش بباقات الورد، أقيمت فوقهما أربعة مساند قطنية عريضة، وضعت داخل كسوة فصلت من نفس القماش، تتوسط الغرفة طاولة رخامية مستطيلة مغطاة بمفرش من الساتان الأبيض،وضع عليه مزهرية زجاجية محلاة بورود من البلاستيك، صبغت الجدران بالجير الزهري وعلقت عليها المزيد من الصور التي ظهر فيها مرتدياً زيه العسكري، تخللتها تابلوهات قرآنية صغيرة، كانت نافذة وحيدة بوجه الباب عليها ستارة شيفون بيضاء، بدأ فتحي بالكلام بعد أن أخرج من حقيبته جهاز تسجيل صغير، وبعضاً من أوراق بيضاء، وقلماً، لكن أوقفه أيمن حسن حين ألقى بقسمه بألا يتم التحدث في أي شيء قبل تناول الغداء،

وبالفعل نادى زوجته لإحضار الطعام، وبعد لحظات لم تطل سمعنا دقات هادئة على الباب، ناولته زوجته صينية كبيرة عليها أصناف عدة من الدجاج المقلي، والبط، والخضار، والأرز، ثم دعانا إليها ليكون (عيش وملح) دار حديث المائدة عن حالة الغلاء التي نعاني منها الآن، وعن الانتخابات الرئاسية، والتوريث، والبرادعي، وأيمن نور، وحمدين صباحي، وعن كرة القدم العظيمة التي انتفخت جداً حتى أصبحت أكبر حجماً من السياسة، والثقافة، والفنون الجميلة، فتُرهن كرامة شعب بأكمله على قدم لاعب خيلت له نفسه أنه بطل يحمل السلاح، يعود منتصراً فيستقبلونه بالأغاني الوطنية، وأطواق الورود، أو يعود مهزوماً فيستقبلونه بأغاني النكسة الحزينة، ودموع الانكسار، فالفريق القومي تحول إلى جيش عسكري كبير يجر خلفه الكبار، وأبناء الكبار الذين يهتفون بحياة رئيسهم الذي بشرهم بنصر قادم (زي ما قال الريس منتخبنا كويس)، وذلك لأن الشعب تحول إلى جموع من المجاذيب، تناسوا جوعهم، وهمومهم أمام ركلة كرة تستقر في شباك خصم مستعار، فخلقوا جيلاً مشوهاً يسكن مدرجات الملاعب، لا يعرف شيئاً عن انتصاراته،أو هزائمه الحقيقية، بل فقط يعرف تاريخ النادي الذي مزق حنجرته من أجل أن يهتف له، ومنتخبه العظيم الذي يدور خلفه بلاد الله ملطخاً وجهه برايتنا المقدسة، ورئيسه الذي وقف يبارك أبطاله العائدين بكؤوس النصر، فعقب فتحي على هذا الموضوع قائلاً وقد بانت حسرة بعينيه (ده ناقص يشيلوا النسر من العلم ويحطوا مكانه كورة)،وعقب أيمن

حسن(يا ترى اللعيب من دول يساوي كام مواطن مصري في نظر الحكومة؟!) ضحكنا كثيراً لكن كان الألم يطل برأسه من صدر كل واحد فينا، أنهينا طعامنا، ودخلت صينية أخرى عليها أكواب الشاي، وطبق من الفاكهة،فعاد فتحي يخرج أوراقه،ومسجله الصغير موجهاً حديثه لأيمن حسن الذي كان يجلس تحت النافذة متأهباً (عايزك يا أيمن تحكيلنا الحكاية من طأطأ لسلام عليكم..ايه خلاك عملت كده؟؟) فابتسم لنا وشرد بعينيه بعيداً، ناحية صوره العسكرية التي تحيط بنا..

كنت لا أزال أرى عينيه اللامعتين من خلف صفحات الجريدة، التي جلست لقراءتها خلف مكتبي صباحاً مع فنجان من القهوة أعددته لنفسي بعد أن أصبحت وحيداً حتى من رفقاء الصباح، وأنا أقرأ حواراً كنت شاهداً عليه، وعشت مع صاحبه للحظات أكلنا فيها(عيش وملح) ، وصافحته بتلك اليد التي تبحث عمن يجذبها من بئر مظلم، كانت صوره تتأرجح مع أنفاسنا اللاهثة خلف حكاياه التي جعلتني أرى خطوطاً جديدة في فنجان قهوتي المقلوب.. فأقرأ بصوت مسموع لأستمتع بتلك الروح التي تسكن داخلي منذ سنوات طوال، لا يعلم عنها أحد شيئاً، سوى أنها روح بها أحرك جسدي، وأعيش أماكن أخرى وحكايات.. أمر بعيني على السطور المزدحمة بالكلمات، فأسمع صوته الحزين يهمس داخلي :

- حدثنا عن نشأتك والظروف التي تربيت فيها؟

-أنا المواطن المصري والعربي المسلم أيمن حسن ولدت في ١٨ نوفمبر١٩٦٧ عام النكسة وعقب حدوثها في ٥ يونيومن العام ذاته وبالتحديد بعد مضي خمسة شهور ونصف تقريبا، تربيت منذ صغرى في المعهد الديني الأزهري الذي كنت أدرس فيه بالزقازيق وتعلمت فيه على أيدي مشايخنا أن إسرائيل عدونا الأول، وأنها زرعت لمحاربة الإسلام، وتهديد المسجد الأقصى في الأراضي الفلسطينية المحتلة. وتفتحت عيناي على ما شهدته من فظائع ومجازر إسرائيلية ضد الأطفال والمدنيين العزل أثناء حرب الاستنزاف مع مصر سواء ما رأيته في متحف الزعيم أحمد عرابي بقريته «هرية رزنة» التابعة لمركز الزقازيق من صور لجريمة قتل أطفال مدرسة بحر البقر الابتدائية، ورأيت نماذج من كراريسهم الدراسية ملوثة بالدماء، ومازالت موجودة حتى الآن.. بالإضافة لما سمعته من والدي رحمه الله عن محرقة إسرائيلية لمدرسة كفر حافظ التابعة لمركز أبو حماد بالشرقية والمجاورة لبلدتنا بمركز أبو كبير بالشرقية وكذلك ما حدث في أبوزعبل التابعة لمحافظة القليوبية والقريبة من بلدنا أيضا..

-هذا يعني أنك كنت مشحوناً منذ الطفولة بتلك الكراهية تجاه اسرائيل، وما فعلته لم يكن رد فعل ألقته الصدفة؟؟

-بالطبع لم تكن صدفة أبداً، بل طوال حياتي كنت أرسم تلك الصور والحكايات العدائية في مخيلتي للثأر من إسرائيل باعتبارها العدو الرئيسي لمصر وللعرب وللإسلام. وعندما سافرت للعمل في

الأردن عام ١٩٨٤ ولمدة أربع سنوات قبل تجنيدي بالقوات المسلحة عشت عامين داخل مخيم البقعة للفلسطينيين على طريق عمان إربد بالأردن، وشهدت المرارة الفلسطينية للواقع الذي يعاني منه أصحاب الأراضي المحتلة والمهجرون المضطهدون، والمطرودين من وطنهم قهرا وأراضيهم مغتصبة وهي حياة صعبة وكئيبة ولقد تأثرت لهم كثيرا وتألمت لهم.

-قرأت حواراً بإحدى الصحف قلت فيه بأنك حزين بسبب اغتيال الجندي سليمان خاطر وتعتبره مثلك الأعلى.. فكيف وأين علمت بأمر اغتياله؟ ولماذا خططت للثأر له بعدما أهدرت دماؤه في سجنه؟

-وقع حادث البطل بلدياتي الشرقاوي الجندي الشهيد سليمان خاطر في ٥ أكتوبر ١٩٨٥ وقبل تجنيدي في سلاحه ذاته «الأمن المركزي» وفي نفس مكانه (جنوب سيناء) بثلاث سنوات وكنت آنذاك أعمل في الأردن، ولقد فرحت كثيراً بما فعله، وبطولته ضد الإسرائيليين وكذلك الإخوة الفلسطينيون المتواجدون معي، وهو ضرب مجموعة من الإسرائيليين من منطلق حقه الشرعي عندما حاولوا اختراق موقعه العسكري لوجود أجهزة رصد عسكرية مصرية معه محظور تواجدها وفقاً لإتفاقية كامب ديفيد في المنطقة «ج» بسيناء، وهؤلاء كانوا جواسيس وعملاء (للموساد). ولذلك كان واحداً من الذين ثأرت لهم بعدما تم اغتياله في ظروف غامضة عندما نقل للمستشفى بعد محاكمته بعشرة أيام فقط، وزعموا بعد ذلك أنه انتحر.

- هل هناك شخصيات أخرى أثرت فيك بشكل مباشر من الذين طالتهم أيادي العدو الإسرائيلي، ومن ثم قررت الثأر لهم؟

-أثناء فترة تجنيدي علمت بواقعة اغتيال العالم الشرقاوي د.سعيد سيد بدير في شقته بالاسكندرية، ورميه في الشارع بملابس نومه حاملاً جواز سفره، والادعاء بأنه انتحر هو الآخر، رغم أنه كان يجهز أوراق سفره للعمل في جامعة أندونيسية، بعدما رفض العمل بوكالة (ناسا) للأبحاث الفضائية. فبدير أحد أبرز ثلاثة علماء في العالم في علم (الميكروويف للاتصالات) بالأقمار الصناعية والتجسسية، وكان عقيداً بالقوات المسلحة المصرية وأستاذاً بالكلية الفنية العسكرية ومستشاراً علمياً لرئيس الجمهورية، فقرأت تفاصيل اغتياله في الصحف، حيث كانت أصابع الاتهام تشير إلى (الموساد) الإسرائيلي، فأثار هذا الحادث مشاعري الوطنية وحزنت على رحيله وإهمال الأجهزة الأمنية المصرية في توفير حماية له داخل مصر رغم أنه مستهدف من المخابرات الإسرائيلية والأميركية.

- ما هو الدافع القوي الذي جعل بركان الغضب ينفجر داخلك فقررت القيام بالعملية؟

شاهدت من موقعي العسكري على الحدود أثناء نوبة خدمتي جندياً إسرائيلياً يقوم بمسح حذائه بالعلم المصري الذي طار من فوق سارية على النقطة ٨٠ الحدودية المجاورة لموقعي وأبلغت قائدي الضابط المصري بذلك، وعندما شاهدني الجندي الإسرائيلي أشكو

لقائدي وأتألم لما يحدث، وبدلا من اعتذاره فوجئت به يطرح زميلته المجندة الإسرائيلية المناوبة معه في خدمته بجيش الدفاع على العلم المصري وينام معها عليه في العراء. فغلت عروقي وقلت في نفسي (طلبت موتك يا عِجل)، وقررت فوراً أن أطلق عليهما الرصاص وقتلهما معا وخاصة أنني في وضع جيد للتصويب، يجعلني أتمكن منهما تماما لارتفاع التبة التي عليها موقعي حوالي ١٦٠٠ متر ولكنني تراجعت لإعادة التخطيط لتنفيذ عملية عسكرية استشهادية كبرى..

-وماذا حدث بعد ذلك؟

ارتكبت إسرائيل مذبحة داخل المسجد الأقصى بقتل عدد من المصلين أثناء سجودهم في صلاة العصر على أيدي دورية عسكرية إسرائيلية، ما جدد رغبتي في الثأر دفاعاً عن شرفي العسكري والوطني وغيرتي على ديني كمسلم وعربي وانتظرت على نار ولهب عشرة أيام أي رد فعلي إيجابي من العالم أو من الحكام العرب والمسلمين دون جدوى أو أمل حقيقي وقررت فورا الانتقام والثأر دفاعا عن ديني ووطني حتى لو كان الثمن شهادتي في سبيل الله..

-ألم تكن خائفاً من فشل العملية، فتقع أسيراً في يد العدو، أو تقتل؟

لم أكن خائفاً أبداً، كنت قد نزعت فتيل الخوف ودفعت صمام الأمان بداخلي وبدأت أجهز سلاحي وذخيرتي لتنفيذ العملية

العسكرية الشاملة بمفردي، وأدخلت تعديلاً في خطتي الهجومية وهي بدلاً من أن أقتل العسكري الإسرائيلي الذي دنس العلم المصري قررت الانتقام لمذبحة المصلين في المسجد الأقصى، ولذلك وقع اختياري على استهداف الباص العسكري الذي يحمل كل ستة أيام الضباط العاملين في مطار رأس النقب الإسرائيلي وكان يتبعه باص آخر يحمل الفنيين والجنود العاملين بالمطار العسكري أيضا، ووضعت الخطة الهجومية لاصطياد أكبر عدد من هؤلاء أثناء مرورهم أمام موقعي العسكري في تمام الساعة السادسة وثلاث دقائق صباح يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٩٠، لتفادي دوريات تأمينهما من الأمن الإسرائيلي، وذلك بعبوري الحدود المصرية، والدخول للحدود الإسرائيلية في وادي صحراء النقب على الجانب الأيسر لموقعي العسكري بدلا من إطلاق الرصاص من فوق التبة.

- وكيف قمت بتجهيز نفسك لعملية خطيرة كهذه ؟

أديت صلاة الاستخارة عقب صلاة الفجر، وأعددت نفسي، وسلاحي وذخيرتي وتهيأت معنوياً واعتمدت على الله واحتسبت نفسي شهيداً في سبيل الله والوطن دفاعا عن شرفي العسكري ونصرة للمسجد الأقصي بيت الله المقدس وأولى القبلتين، وفي تمام السادسة صباح ذلك اليوم حملت أسلحتي، وذخيرتي وعبرت الحدود من موقعي العسكري بالجانب المصري إلى داخل الحدود الإسرائيلية في منطقة رأس النقب، وذلك عبر الأسلاك الشائكة على الحدود التي قمت بقصها.

- وماذا بعد أن أصبحت وجهاً لوجه مع عدوك؟

- وفقني الله بعد أن دارت اشتباكات عدة بالرصاص مع جنود إسرائيلين يحملون الإمدادات لمطار النقب العسكري،وآخرين عائدين من مفاعل ديمونة وقتلت منهم واحدا وعشرين إسرائيلياً منهم الجندي الذي أهان علمنا المصري أمام عيني بعدما رأيته بالصدفة يركب سيارة جيب وعليها مدفع فكرز، وكان من بين القتلى أيضاً ضابط كبير بالمخابرات الإسرائيلية برتبة عميد كان واحداً من الذين نفذوا عمليات اغتيال كبيرة لصالح الموساد هنا بمصر هذا ما علمته بعد ذلك، وجرحت عشرين آخرين، وعدت سالماً إلى الأراضي المصرية بعد أن تبادلت إطلاق النار مع مجموعة من الجنود الإسرائيلين ممن لحقوا بي لقتلي، وكان قد أصابني أحدهم برصاصة بفروة رأسي، ثم ساعدتني العناية الإلهية على اتمام انسحابي وذلك بعد أن أوقفت سيارة ربع نقل تابعة لشركة عثمان أحمد عثمان، لتسليم نفسي لقائد المنطقة العسكرية بسيناء اللواء عبد الحميد..

-وماذا كان رد فعل القائد لما قمت به؟

بعدما دارت بيننا دردشة شفوية حكيت له فيها عن كل شيء، قام من مكانه وصافحني بشدة، وهنأني على عودتي سالماً، بعدها تفاجأنا بدخول قائد القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة في سيناء للفصل، يطلب من القائد عبد الحميد القبض الفوري على منفذ

العملية العسكرية الذي قتل الإسرائيليين وإصابته البعض الآخر في النقب، ولم يكن يعلم أنني منفذ العملية المطلوب،كان الجنرال الأميركي وهو برتبة عميد طيار يتحدث اللغة العامية المصرية بطلاقة وبلغة «بولاقية» وكانت المفاجأة التي فجرها اللواء عبدالحميد في وجه الجنرال الأميركي وقائد قوات الطوارئ الدولية «UN» عندما قدمني إليه قائلا بفخر «هذا هو الجندي المصري قاتل الإسرائيليين يا جنرال» ورد عليه بعنهجية أميركية وغرور (طيب يا جنرال عبد الحميد سلمه لي لتسليمه لإسرائيل لمحاكمته عسكرياً بها، لارتكابه جرائمه داخل حدودها)، فرد عليه قائدي الأعلى بوطنية مصرية (لكنه جندي مصري وفي حوزتنا وسلم نفسه واعترف بجميع التفاصيل وستتم محاكمته في وطنه وفقا لمفهوم السيادة الوطنية ولا يجوز لنا تسليمه لإسرائيل رغم معاهدة السلام معها)،لقد فطن قائدي اللواء عبد الحميد لما يدور في ذهن الجنرال الأميركي، ومكره وخداعه وانحيازه لحليفة بلاده إسرائيل،فخشي أن يقوم بإبلاغها بتواجدي في مقر قيادة قوات الأمن المركزي بسيناء في النقب والقريب من حدودها فيقوموا بشن هجوم عسكري ضدنا، فتصرف معه بلباقة عسكرية ومنعه من إجراء أية اتصالات وتحفظ عليه في مكتبه..

-ألم تدر شكوك حولك بأن ما فعلته هو لصالح جهة دينية أو سياسية معينة؟

-تم استجوابي عدة مرات أمام أكثر من جهة أمنية وعسكرية وسيادية وتركزت استجواباهم بشأن دوافعي للحادث وانتمائي السياسي ونفيت قيامي بذلك لدوافع تنظيمية أو بتكليف من جهة ولكن بإرادتي وتفكيري الفردي..

-متى بدأت محاكمتك؟ وما هي نتائج المحاكمة ؟

- بدأت محاكمتي منتصف ديسمبر ١٩٩٠ وتم النطق بالحكم في ٦ ابريل ١٩٩١ بالسجن المؤبد لمدة اثنتي عشر عاماً بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار لواحد وعشرين إسرائيليا وإصابة عشرين آخرين وإتلاف ست سيارات...

- مؤكد أنك تعمل الآن بوظيفة مرموقة. أليس كذلك؟

- أفرج عني عقب قضاء عشر سنوات في السجن ومن لحظتها وأنا أعمل سباكا باليومية وأجاهد من أجل توفير لقمة عيش شريفة لأسرتي الصغيرة المكونة من زوجتي وولدين بالإضافة لأسرتي الكبيرة المكونة من والدتي وأشقائي عقب وفاة والدي وهو موظف بسيط بشركة» أتوبيس» شرق الدلتا..

-هل تشعر في النهاية أن الحكومة لم تقدم لك ما تستحقه كبطل قومي، كاد أن يضحي بروحه في سبيل الثأر لكرامة هذا الوطن؟

- أتمنى أن تعاملني الحكومة المصرية مثلما تعامل حكومة إسرائيل قاتل - الضابط المصري «عبد اللطيف» في رفح — الذي قدمت له

جميع التسهيلات ليعيش معززاً مكرماً، أما أنا فخرجت بشهادة عسكرية رديئة لأنه مدون بها جريمتي «قتل عمد إسرائيليين» وكذلك صحيفة الحالة الجنائية «الفيش والتشبيه» ما يعوق عملي بوظيفة حكومية حتى الآن ولم يعرض علي سوى وظيفة بالصرف الصحي بمجلس مدينة الزقازيق «زبال» بأجر غير ثابت وهي بتوصية من نائب بالبرلمان رغم أن بلدي محافظة الشرقية بها مناطق صناعية عدة أشهرها العاشر من رمضان، ورغم أنني في احتياج للحصول على شقة سكنية إلا أنني فخور بما فعلته لأنني لم أتاجر في المخدرات ولا هاتك عرض ولا سارق أموال أو مهرب لها للخارج بل قاتل للإسرائيليين أعدائنا ليوم الدين.

حدقت في صورته المنشورة بمنتصف الصفحة، ورحت أبحث بين عينيه عن إجابات اتلك الحياة التي أعيشها، إجابات لن أجدها إلا هنا بين عينيه التي رأت ما لم أر، فأيقنت الحقيقة التي أبحث عنها عن قرب، هو انسان أمضى عمره كله يحلم بلحظة يرى فيها رصاصته في رأس عدوه، أما أنا فقد كنت أحلم بأشياء أخرى بعيدة، أخاف أن يطلع عليها الناس، فعشت على كتمان أسرار ذاتي التي تسعى دائماً للذة، فأجرب أن أكون بطلاً يصفق لي العالم كله، وأجرب أن أكون أكبر بكثير مما يجب، فأقبع في أحضان امرأة تعطيني كل شيء وأعطيها أنا كل ما أملك.. أبي.. أمي.. أخي.. زوجتي.. ابني..

حتى تلك الأرض التي أجلس عليها، وملابسي التي أرتديها، فهي حياة يجب أن أعيشها، ومعركة يجب أن أخرج منها سالماً، أدافع فيها عن نفسي حتى النهاية، لأخرج إلى الدنيا بإنسان من صنعي أنا، لا تمثال متجمد نحته كل من هب ودب بأفكاره العالقة في الطين، كنت أود أن أسأله ألف سؤال يجول في خاطري، وأعلم أنه وحده من يمتلك الإجابة، لكني خرجت من بيته حانقاً على نفسي التي تركتها كقطعة صلصال تشكلها الرياح، فشعرت أنني لا شيء، أو أنني شيء يعيش في اللامكان، واللازمان، أمام هذا العملاق الذي قد تزعجه أسئلتي التافهة، فخرجت صامتاً كما دخلت بعد أن رأيت بعيني أن هناك من يضحي من أجلنا ولا نراه، بل قد نراه فنشير إلى جراحه ساخرين.. طويت الجريدة، وأغلقت النافذة، وجلست في مقعدي أرقب ما تبقى من روحي في الظلام.. فكانت علامات تضيء وتنطفئ، وبرهان يتنزل من السماء-لا تدافع-عن يميني، عن يساري، من تحتي، وفوقي-لا تدافع- أهرب ناحية النافذة، ناحية الباب، في ركن بعيد، لكني مازلت بمقعدي ملتصقاً تماماً، لا أتملص منه أبداً.. الآن فقط أيقنت أنني سأظل في مكاني إلى الأبد عاجزاً تماماً عن كل محاولات الهروب..

---

*الحوار مستوحى من حوار للزميل لروت شلبي بجريدة النهار الكويتية (العدد ٦١١)

لم يكن أمامي خيار آخر إلا أن أذوب في حفنة ماء، أو أن أختبئ في جيب ابني الصغير فلا يراني أحد من هنا أو هناك، أغلقت هاتفي، وخلعت ساعة يدي،وعطلت ساعة الحائط،ثم أوصدت عليّ بابي، وقررت أن أعيش بعيداً عن أحلام الخارج التي تصر أن تنزعني من رأسي، أو تنزع رأسي عني، فهذا يريدني يميناً،وهذا يريدني يساراً، وهذا يريدني أن أهبط تحت الأرض، وهذا يريدني أن أصعد معه إلى السماء، لكن أياً منهم لم يسأل تلك الدمية عن أي مكان تريد أن تكون فيه، تعيش الدمية، تموت الدمية، المهم أن تكون عجيناً يتمطط في أياديهم عند الاتجاهات الأربعة،لم أشعر بالجوع لثلاثة أيام متواصلة عشت فيها على الماء، والقهوة والشاي، وقضم أظافري، وحصرت خطواتي بين مقعدي والنافذة، والمكتب، والكنبة والحمام، فلم يتحرك لساني بكلمة واحدة، ولم أسمع سوى ضجيج الشارع، وتلك الدقات التي أتتني ليلاً في اليوم الرابع، دقات هادئة.. متقطعة.. لكنها تصر أن تجد من يجيب،كأنها تعلم بوجودي هنا حيث اللامفر إلا لجدران أربعة من صنع البشر، تقدمت نحو الباب بخطوات تكاد أن تحصى، فرأيت خيالاً يحجبه الزجاج الغائم؛ كان رأساً صغيراً ينسدل منه شعر قصير على الجانبين، أدرت مقبض الباب ببطء شديد، فكانت هي.. تلك المرأة التي طالما رأيتها في أحلامي ظلاً لا يشبهها، بل كان أشبه بفتاة تبتسم، وتضحك،

وتلعب، وتقفز حولك، وتملأ عينيك بنوم أشبه بغفوة تحت شجرة بالجنة، لم أجد على لساني كلمات يمكن أن أقدمها إليها لأرحب بها فقط اكتفيت بتنهيدة طويلة انزلقت من فمي دون وعي، فأعضاء جسدي وكل حواسي باتت تعرفها، بل باتت لا تطيق لون ابتسامتها التي أتت بها من بلاد الجليد، لكن هنا كل شيء ينصهر، فتظهر تلك النتوءات القديمة وندوب الجسد التي لا يمكن أن تمحى أبداً، فنموت بها ونبعث عليها، ونخجل منها عندما ينظر إلينا الله، فنتمنى أن نكون تراباً..

وجهت حديثها إليّ بلهفة (يوسف..انت هنا؟ ليه قافل موبايلك؟ وايه إلي انت عامله في نفسك ده؟)،كنت صامتاً غير قادر على الكلام، أو أنني عشقت نوبة السكون التي عشتها لثلاثة أيام متوالية، ولكن أي بشرى أنتظرها سوى أن أصرخ في وجهها أن ترحل عني بلا عودة كما رحل من سبقوها إلى هنا، وجاء يدق بابي ليتباهى برائحته الجديدة، وبدلته المنسوجة بعناية،ورابطة عنقه التي تبرق بدبوس ذي رأس من الماس، اتجهت صوب النافذة المغلقة وحررتها من الجدار، تنفست بعمق وكأنها تشعر بنقص في هواء المكان، ثم استدارت نحوي قائلة (ايه الكآبة إلي انت عايش فيها دي؟) كنت ما أزال أتأملها غارقاً في صمتي، فعادت للكلام (انت ناسي يا أستاذ إن جلسة الحسم في قضيتي الأسبوع الجاي؟) فبدأت أتحدث كطفل ينطق بأحرفه الأولى، لكن فجأة تحولت لهجتي إلى لهجة أخرى

صارمة (أنا مش هدافع عنك..يا سحر) فدارت في المكان كأنها لم تسمع العبارة، حتى ظننت أنني لم أنطق بها، فجلست تتأرجح على الكرسي المتحرك خلف مكتب السكرتيرة، ثم حدقت في وجهي الشاحب قائلة (أنا أخدت شقة على النيل عشان نكون فيها مع بعض دايماً)،فأعدت تكرار العبارة بنفس اللهجة (مش هدافع عنك يا سحر)، فرسمت على شفتيها ابتسامة غريبة، وقامت من مكانها، وبخطوات متبخترة تقدمت نحوي، فتوقفت أمامي، وفردت كفها على خدي، ثم ثبتت عينيها بعيني طويلاً، تغير وجهها وهي تهمس في أذني قائلة (متقدرش) أبعدت يدها عني، وحملت حقيبتها من على الطاولة، واتجهت ناحية الباب، ثم التفتت إلي قائلة (أشوفك يوم الجلسة.. متقفلش موبايلك تاني.. واحلق دقنك دي..سلام).. وقفت مذهولاً لإذعاني، لخضوعي، لضعفي، لاستسلامي، لطيف غزاني ولم تتحمله عيناي، وذهب بعد أن بعثر داخلي كرة الزئبق التي إذا حاولت القبض عليها تخرج منها ألف كرة أخرى لتلتف حولك كلما حاولت الفرار..

جلست خلف مكتبي أحتسي القهوة التي صنعتها بيدي، وأمسكت بقلمي لأكتب مذكرة الدفاع لأقف بها أمام القاضي الذي بيده القرار، فالأمر لم يعد سوى رهان خاسر على نفسي التي وضعتها في مأزق كبير منذ عادت تلك المرأة تطلب مني أن أنزع بعض وريقات بيضاء وأخط فيها براءة دمها من الذئاب، لأعلقه في رقبة هؤلاء الناس الذين يغدون جياعاً، ويعودون بفتات من خبز

وعود من قش يلفون به عورات صغارهم، فهم لا يعلمون شيئاً عن تلك الشجرة سوى غصونها الجافة التي تحمل أعشاشهم الصغيرة، أما الثمار فهي دائماً لأصحاب الكروش الكبيرة، تسقط في أفواههم سهلة.. حلوة..طازجة، فيزداد طمعهم في الجذور ليأكلوها ويفرغوا الدوح من حياة طيبة يمكن أن تحوى عشاً واحداً يسكن فيه عصفور لا يعرف عن تلك الدنيا سوى الشراب والطعام،وحلمه في الطيران.. فيجف ويموت مجنوناً، أو مخبولاً، فليس بعاقل أبداً من يموت جوعاناً، وظمأناً، وحراناً، وبرداناً هنا على تلك الأرض التي أضحت كجزيرة تسبح على هامش خرائط العالم والكرة الأرضية الضخمة، فتدور في فلك آخر بعيدة عن تلك الزحمة، وعن هذا الحلم الذي سيسقط يوماً منفجراً كشظايا عمياء ..

لم أعثر على كلمة واحدة يمكن أن أكتبها لأدافع عنها أمام شعب بأكمله، وأمام تاريخ لا يمزح أبداً، فوضعت قلمي ورحت أنادي في الناس جميعاً أن يمنحوني القوة التي يمكن أن أعبر بها إليهم وأنجو ببدني من شيطان أراد أن يقتنص كل خلايايا الطيبة ويهرب بها إلى النار..كنت أبحث عن مقالات الصحف التي جمعتها السكرتيرة في ملف أحمر وألقته في مكان ما، المكان ليس ببعيد، لكن الأفكار تتراكم مع الأوراق المهملة على الأرفف،وفي الأدراج، وكلما أردت العثور على ورقة لم أجدها، وعلى غير ميعاد يأتي من يمد لي يده ويناولني إياها، ظل الملف غائباً عني فكنت مصراً على إيجاده هذه المرة، لن أيأس أبداً.. لن أنفخ الهواء من فمي.. أو أجلس

منهكاً أصب لعناتي على كل شيء هنا، فتحت كل الأدراج، والخزائن المتخمة بزغب الزبائن القدامى، كانت المخابئ تنكشف أمامي كأحجار الماضي التي شققنا عليها تاريخاً، واسماً، وعنواناً، في كل لحظة كنت ألتقط فيها أنفاسي أشعر أنني أبتلع جزءاً نزع مني ونسيته هنا على فوهات مغلقة بالصمغ...

أخيراً.. عثرت عليه.. الملف الأحمر في يدي الآن.. لم أكن في حاجة لتصفحه، فبت أحفظ هذا الكلام عن ظهر قلب، لكني عاجز عن النطق به، أو أن أخطه بقلمي، أو حتى الاحتفاظ بملف كهذا في مكتبي، عبرت الصالة إلى الداخل.. تأملته للحظات ثم علقته بورقتي البيضاء.. الآن أصبحت مذكرة الدفاع جاهزة على أكمل وجه لأمثل بها صباحاً أمام القاضي.. أخرجت بدلة جديدة من حقيبتي وقميصاً، رتبتهما جيداً، ومسحت حذائي استعداداً للغد، ضبطت المنبه على ساعة إيقاظي، ثم اتجهت إلى الحمام لحلاقة ذقني، وأخذ دش دافئ وبعدها سأطفئ كل المصابيح إلا مصباح واحد صغير في الردهة الخارجية، بعدها أخلد إلى النوم على الكنبة الجلدية العريضة.. لكني شعرت بجوع شديد أسقط معدتي، فأردت أن ألتهم به خروفاً مشوياً كاملاً، فرفعت سماعة الهاتف لأتصل (بحاتي) قريب ليجهز لي وجبة سريعة، لكني تذكرت شيئاً هاماً جعلني أتمهل قليلاً قبل أن أضع نفسي في تلك الورطة.. تذكرت أن ما تحويه حافظتي نقودي، وجيوب ملابسي كلها، لا يكفي لشراء رغيف خبز واحد،

بحثت في الثلاجة عن أي شيء يمكن أن أحمد به جوعي، فانفرجت أساريري عندما وقعت يدي على قالب شيكولاتة سوداء صغير الحجم، ربما كانت تحتفظ به السكرتيرة لتلتهمه مع فنجان من القهوة بساعة حظ، فتركته ورحلت،وبقي هو من نصيبي مع فنجان قهوة مُرة صنعته لنفسي كما أصنع لها الآن ما تبحث عنه منذ خلقني الله.. بعدها كان النوم هو أكبر شيء يمكن أن أفكر فيه في تلك اللحظة ويخضع له جسدي كله..

في الصباح كنت أستقل سيارتي لألحق بهم، لم أشغل بالي بالتفكير كثيراً في أشياء كانت تتزاحم حولي؛ فقط كنت أتفرج من وسط الزحام على تلك الصور الملصقة على الجدارن التي تحمل معها مستقبلا قادما، لكنها لم تكن صوراً لفارس يمتطي حصانه ويجمع حوله الناس ليخطب فيهم بكلمات نظل نرددها، ونكتبها، ونحلم بها، بل هي صور لرؤوس ضخمة فارغة، وملامح تبتسم لشعب لم يعد يعرف تلك المعاني البعيدة، فالكل يجري إلى حال سبيله، يصارعون الطرقات حاملين على ظهورهم جرات خاوية طالبين قوت يوم قادم.. أما اليوم التالي فيبقى لليوم التالي، أزحت زجاج النافذة لتلك الأحاديث التي تأتي معهم كل صباح، وترحل عنهم كل ليلة .. ومن يموت يخسر مانشيتات الأخبار.. فمن بين الأفواه المتحركة تخرج الأصوات مختلطة؛ فصوت يأتيني عن سرقة لوحة زهرة الخشخاش من متحف محمود خليل، وفاروق حسني يبحث مع الشرطة عن المسئول الأول عن الحادث، وصوت يأتيني عن

هشام طلعت مصطفى الذي تبرع من سجنه لسداد ديون الريان، لعل الله يفرج عنه الغمة وينجو من حبل المشنقة، وأصوات كثيرة تأتيني بفضيحة صحيفة الأهرام التي (فبركت) صورة للرئيس ليظل دائما في المقدمة، ولغط يزداد في كل مكان عن ارتفاع أسعار اللحوم، والخضار، والسكر والزيت، والطماطم وفواكه الفقراء، وصوت آخر يمر من خلفي يتحدث عن أزمة انقطاع الكهرباء، والريس يستفسر دائماً عن الأسباب،وصوت ساخر يقفز أمامي يتحدث عن خصوم البرادعي الذين قاموا بنشر صور ابنته بلباس البحر، وآخر يدق طبلة وينادي بأن صحف إسرائيل تتوعد بمقاضاة الأسواني لرفضه ترجمة أعماله للعبرية..وأخيراً كمال الشاذلي يعلن ترشيحه لمجلس الشعب عن دائرة الباجور من فراش الموت، ففزعت على صافرة عسكري المرور ملوحاً للسيارات بعبور التقاطع بينما كان مذيع النشرة الجوية يعلن عن استمرار الموجة الحارة لثلاثة أيام قادمة..

الموت هو الحل.. لا شيء آخر يفيد في المدن الموبوءة إلا الموت، فالصراخ لا يجدي، والهروب إلى أين؟ والحياة لا تستمر إلا تحت وطأة النار، والشمس تشرق كل يوم لنتعذب، ونحني جباهنا تحت أقدام الملوك، فلا هم ألقوا إلينا بفتاتهم، ولا حتى تركونا نأكل من خشاش الأرض، فتزوجت السلطة المال، والمال أحمق كالقانون لا يعقل، ولا يسمع، ولكنه يثرثر كثيراً، ويعد كثيراً ويملأ كروشاً تكاد أن تنفجر بلحمنا الرخيص.. أسأل نفسي عن تلك الغابة التي يحكمها الفئران.. فلا أجد إجابة .. لا أحد إلا أنا أرقص معهم،

وألهث معهم، وأبصق معهم في وجه الفقراء.. فلا أجد إلا طفلا يبكي الألم.. ورجلا مفتول العضلات ينام طريح الفراش، وامرأة جميلة اسود وجهها كرغيف الخبز.. وفي النهاية كل الطرق تؤدي إلى جيوب اللصوص الكبار، حتى أصبحت البلد كلها تتأرجح بين السماء والأض وآن لها أن تسقط في عرض البحر.. لتغرق.. وتغرق.. وتغرق.. وتذوب تماماً.. وتختفي.

داخل قاعة المحكمة كانت تجلس في المقاعد الأمامية ترتدي بنطالاً أزرق من الجينز، وبلوزة بيضاء أنيقة،وقد رفعت شعرها للخلف على شكل ذيل حصان، وقف الجميع عندما صاح الحاجب معلناً دخول القاضي المنتظر (محكمة!) جلست جوارها أقبض على توتري بأقصى قوة، فالحكم هو قرار قادم ببقائي، أو زوالي من تلك الأرض، توالت القضايا التي امتلأ بها (رول) المحكمة، والقاضي لا يرحم أحداً فالقانون هو القانون، فيطلق حكمه بوجه واجم، صارم، لا يبتسم، لا يهتز له جفن، فقط يحرك لسانه، فتنشق عنه الناس؛ فمن يبتهج فرحاً ويجلس ينتظر البشرى، ومن يشهق حزناً ويجلس في انتظار مصيره المحتوم، فيدق مطرقته بحزم حينما يلتفت للحاجب الذي يقف خلفه في انتظار عبارة واحدة يصلب نفسه عليها طوال يومه، وينتظرها بفارغ الصبر (نادي على إلي بعده) سخره القدر ليزف الرعب في قلوب المنتظرين، فالحاجب رجل لا يعلم شيئاً عن دقات القلب، ولا عن الدماء التي تنسحب من العروق، ولا عن تلك العمليات الفسيولوجية التي تتبعثر داخلنا عندما يعلو منادياً فينا

ممتطياً صهوة القانون التي ستهبط على رقابنا في أي لحظة، كنت أشعر بإرهاق شديد يمتص كل طاقتي، وجوع جعلني أتنفس الهواء حولي برائحة الطعام، وأرى الناس كما لو أنني أرى وليمة ضخمة يجلس على رأسها القاضي، فعجبت كيف ينام هؤلاء الجوعى حول إناء يغلي بالماء واهمين بأنهم سيأكلون منه قطعاً من لحم؟!. الآن أنا أجلس بينهم جوعاناً جداً.. وفقيراً جداً..و ؟؟

أفقت على وخزة خفيفة من ذراعها عندما علا صوت الحاجب منادياً على القضية التي ستحسم حياتي، فهي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى هنا وأنا أكيد في نفسي خسارة فادحة، ومكسبا لا مثيل له في آن واحد، وثمة أشياء أخرى كانت تترنح داخلي.. استدعى القاضي الدفاع فتقدمت نحوه بعد أن سبقني إليه محامي الخصم وأنا أجر قدماً خلف قدم، وعندما توقفنا أمام المنصة قدم له محامي الخصم مذكرة دفاعه لكني ظللت صامتاً متسمراً في مكاني، فوجه إليّ السؤال بلهجة حادة (وانت يا أستاذ فين مذكرتك؟)، فمددت إليه يدي المرتعشة بالملف الأحمر، وورقتي البيضاء، فقلبهما في يده عدة مرات ثم عاد يسألني مستغرباً (ايه ده يا أستاذ؟ ورق جرايد؟) فأجبته بصوت كاد أن ينقطع (دي مقالات موكلتي كاتباها بتدافع فيها عن نفسها،وشايف إنها أنسب مذكرة ممكن أقدمها لعدالتكم)، رمقني القاضي بنظرة طويلة من تحت نظارته، وعاد يقلب أوراق الملف بيديه، همس في أذن عضو اليمين، وعضو اليسار، ثم انطلق قائلاً (الحكم في آخر الجلسة) فعدت بخطواتي لأجلس جوارها،

فسألتني مستنكرة (انت ليه مكتبتش مذكرة الدفاع؟) حدقت في وجهها للحظات ثم أجبتها بهدوء مستفز (تفتكري كان ممكن أكتب حاجة بعد الي انت كتبتيه؟) فأحنت رأسها وظلت صامتة.. صاح الحاجب بدخول القاضي إلى قاعة المحكمة بعد أن رفع الجلسة للنطق بالحكم ..مسح وجوه الجالسين، ودق بمطرقته عدة مرات، ثم انطلق قائلاً:

-بعد الاطلاع على الأوراق المقدمة، ونصوص معاهدة السلام المبرمة بيننا وبين إسرائيل عام ١٩٧٩واستناداً لما ورد في الفقرة (٣) من المادة الثالثة التي يتفق فيها الطرفان المصري والإسرائيلي على أن إقامة العلاقات الطبيعية بينهما تتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة،وقد أقر مجلس الشعب تلك المعاهدة وأصبحت قانوناً ملزماً لجمهورية مصر العربية.. لهذه الأسباب:

(حكمت المحكمة بقبول الدعوى شكلاً، وفي الموضوع بإعادة قيد المدعية السيدة/سحر اسماعيل شاهين وإلزام المدعى عليهما بالمصروفات ومقابل أتعاب المحاماه) الآن فقط أيقنت أنني لا أسمن ولا أغني من جوع، فقط خيال مآتة لا تخاف منه العصافير، فتصول وتجول في الحقول دون أن تلتفت إليه..رفعت رأسي لأعلى لأستوعب ما نطق به القاضي،فرأيت شهاب يطير طائرته الورقية الملونة، يركض بها حولنا فتعلو ضحكاته كلما حاولت أن أقبض

عليها، فيخرج لسانه الصغير، ويغيظني قائلاً (تعرف تعمل زيها يا يوسف..تعرف؟؟)..أركض خلفه لكنه يرتفع بها بعيداً أركض بشدة.. أقفز.. أتعثر.. أسقط أرضاً.. فتعلو ضحكاته أكثر فأكثر (تعرف تعمل زيها يا يوسف؟) فأرفع يدي عاجزاً عن اللحاق به.. حلق عند النافذة ووقف ينظر إليّ قائلاً بلهجة مشفقة (وعمرك ما هتقدر تعمل زيها أبداً يا يوسف).. تعلق بذيل طائرته فحملته واختفت به في السماء..

(مبروك علينا يا يوسف..كنت واثقة إننا هننتصر عليهم)

لم أكترث بتلك الكلمات،و لم أشعر أبداً بهذا النصر الذي تدعيه، بل كنت مغيباً تماماً عن نظراتها الشامتة،وابتساماتها الباردة، وملامحها اللزجة، حتى شعرت بأن روحي تنشق عني لأنها لا تطيق سُكنى جسد هزيل كجسدي، فقط الروح خلقت لأجساد الأقوياء، أما أنا فلم يعد لي مكان إلا بين جحافل الموتى (يالا يا يوسف.. ناكل ونشرب، ونهيص ونرقص ونغني، ونفرح و..؟؟).. شردت قليلاً ثم عادت تتحدث بلهجة متحدية (من النهارده مفيش مخلوق هيقدر يطردني تاني..فاهم يا يوسف؟)حدقت في وجهها للحظات وقاطعتها قائلاً (تحبي نتغدى فين.؟)فانفجرت ضاحكة (انت النهارده تسيب نفسك ليا خالص.. هنحتفل بطريقتي أنا يا حبيبي) ألقت

تلك العبارة بنظرة متخابثة.. بينما كنت أضغط بقدمي على دواسة البنزين لنغادر ساحة المحكمة إلى حيث تريد ...

(تمت)

محمد سامي البوهي

٢٠١٠/١٠/٢٣

الشخصيات

١- إيما شاه

من مواليد (٧ يونيو ١٩٨١-)، فنانة مسرحية كويتية من أب كويتي وأم إيرانية. وهي مغنية وممثلة وملحنة وكاتبة وعازفة غيتار وبيانو وراقصة ومخرجة مسرحية في المسرح النوعي.

أسست فرقة (أنثروبولوجي) قدمت فيه أول عروضها المسرحية الغنائية التعبيرية عندما أخرجت مسرحية النبي لـ(جبران خليل جبران)(١٧-١-٢٠٠٨و١٧-٣-٢٠٠٨) باللغة العربية والإنجليزية والتي اعتبرها أحد دكاترة النقد في ندوة بعد العرض حدثا عالميا كون امرأة كويتية دخلت الإخراج في هذا النوع من المسرح وامرأة أدت دور رجل في تلك المسرحية. أحدثت ضجة في وسائل الإعلام الكويتية والعربية بسبب تصريحاتها المثيرة للجدل عن القضية الفلسطينية بعدما غنت أغنية (هافا نجيلا) بالعبرية في حفل الخريجين بالكويت، وهي حاليا تقيم بالولايات المتحدة الأمريكية.

٢- ساسون سوميخ

هو باحث إسرائيلي عراقي الأصل في الآداب العربية المعاصرة ويعتبر من أبرز الباحثين في هذا المجال. ولد ساسون سوميخ في العاصمة العراقية بغداد لعائلة يهودية علمانية عام ١٩٣٣. اشتغل أبوه موظف بنك أما أمه فكانت ربة بيت ولكنها كانت قد تلقت التعليم الثانوي في إحدى مدارس جمعية إليانس اليهودية الفرنسية، وكانت تتكلم لغتين أجنبيتين: الفرنسية والإنكليزية. حسب ما قاله سوميخ، كانت من عادة أهله قراءة الجرائد والكتب بالفرنسية والإنكليزية.

في ١٩٥١، وفي ظل مغادرة أغلبية يهود العراق البلاد إثر النزاع العربي الإسرائيلي، قرر سوميخ أن يهاجر إلى إسرائيل. عاش سوميخ في إسرائيل لوحده فترة قصيرة قبلما يغادر أهله بغداد أيضا وينضمون إليه. في إسرائيل أخذ سوميخ يتعلم اللغة العبرية وسريعا ما أصبح خبيرا في اللغة. في ١٩٥٤ نشرت ترجماته لعدد من المؤلفات العربية في مجلة جمعية "بريت شالوم" التي سعت إلى تشجيع التعايش بين اليهود والعرب، وكذلك في صحيفة "قُول هَعام" ("صوت الشعب") الشيوعية الإسرائيلية. في ١٩٥٨ بدأ دراساته في جامعة تل أبيب الجديدة آنذاك وتخرج فيها بتفوق. في ١٩٦٤ تعين لمنصب السكرتير العلمي في أكاديمية اللغة العبرية بالقدس. في ١٩٦٦ سافر سوميخ إلى بريطانيا لمواصلة دراساته في جامعة

أوكسفورد، وفي عام ١٩٦٨ حصل على مرتبة دكتور بعد أن قدم أطروحته عن مؤلفات نجيب محفوظ شملت نتائج البحث الذي أجراه بإرشاد الأستاذ المصري محمد مصطفى بدوي. في ١٩٧٣ صدر البحث ككتاب وكان آنذاك من أول المنشورات النقدية العلمية باللغة الإنكليزية عن مؤلفات نجيب محفوظ. عند رجوعه إلى إسرائيل طلبت جامعة تل أبيب منه المشاركة في تأسيس قسم اللغة والآداب العربية في كلية الأدبيات التابعة للجامعة. وشغل سوميخ منصب رئيس القسم لمدة ١٢ عاما، بين ١٩٧٢ و١٩٨٤. بين ١٩٩٦ و١٩٩٨ شغل منصب رئيس المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة. في ٢٠٠٧ شارك سوميخ في تأسيس مجمع اللغة العربية الإسرائيلي الذي أقيم بموجب قرار الكنيست الإسرائيلي كمؤسسة نظيرة لأكاديمية اللغة العبرية.

في ٢٠٠٥ حاز ساسون سوميخ على جائزة إسرائيل وهي أرفع جائزة تعطيها الدولة لأدباء وعلماء إسرائيليين.

٣- علي سالم

(وُلد ١٩٣٦م) كاتب ومسرحي مصري. تشمل أعماله ١٥ كتابا و٢٧ مسرحية أغلبيتها روايات ومسرحيات كوميدية وهجائية، كما نشر تعليقات وآراء سياسية خاصةً بشأن السياسة المصرية والعلاقات بين العالم العربي وإسرائيل.

وُلد سالم في مدينة دمياط بشمالي مصر. كان والده شرطيا يكسب بالكاد ما يكفي لإعالة أسرته. برغم الفقر الذي عانت منه عائلته، حاز سالم على تعليم ممتاز خاصة في مجال الأدب العربي والعالمي. توفي أبوه في العام ١٩٥٧ عندما كان سالم في ٢١ من عمره، مما أدى إلى إعفائه من الخدمة العسكرية كي يستطيع إعالة أسرته. كان أخوه قد سقط في حرب ١٩٤٨. بدأ علي سالم نشاطه بالتمثيل في عروض ارتجالية بدمياط، بلد نشأته في خمسينات القرن الماضي. ثم عمل بعدة فرق صغيرة، قبل أن يعين في مسرح العرائس ويتولى مسؤولية فرقة المدارس ثم فرقة الفلاحين.

أولى مسرحياته التي قدمته كاتبا محترفا كانت ولا العفاريت الزرق، ثم كتب مسرحية حدث في عزبة الورد، ليقدمها ثلاثي أضواء المسرح جورج وسمير والضيف، بعد بروفات ٩ ايام فقط، واستمر العرض ٤ أشهر في سابقة من نوعها في وقتها.

برز علي سالم في دعمه المبادرة السلمية التي قام بها الرئيس المصري محمد أنور السادات في نوفمبر ١٩٧٧ بشأن السلام بين

العرب وإسرائيل، ولكنه لم يزر إسرائيل حتى سنة ١٩٩٤ بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو الأولى. سرد سالم أحداث رحلته ولقاءاته مع إسرائيليين في كتاب "رحلة إلى إسرائيل". وبعد صدوره في مصر تم ترجمة الكتاب إلى اللغتين العبرية والإنكليزية حيث صدر أيضا في إسرائيل وفي بلدان أخرى.

منذ زيارته إلى إسرائيل كان سالم من أشد المؤيدين للتطبيع مع إسرائيل من بين الأدباء العرب، ولم يتنازل عن موقفه هذا بالرغم من الإدانات التي نشرت ضده في الصحف والمجلات المصرية والتي انتهت بمحاولة لطرده من جمعية الأدباء المصرية وقد فشلت المحاولة لأسباب قضائية، ولكن الأجواء العدائية تجاه سالم ما زالت سائدة بين عدد من زملائه.

في يونيو ٢٠٠٥ قررت جامعة بن غوريون في النقب، الواقعة في مدينة بئر السبع جنوبي إسرائيل، منحه دكتوراة فخرية. أما السلطات المصرية فمنعته من الخروج من مصر لحضور الحفل في بئر السبع دون أن تعلن السبب لذلك. أعرب سالم والجامعة الإسرائيلية عن عدم ارتياحهما لمعاملة السلطات المصرية معه. فاز بجائزة الشجاعة المدنية والتي تقدمها مؤسسة تراين الأمريكية، وقيمتها ٥٠ ألف دولار أمريكي وتسلمها يوم الأربعاء١٩ نوفمبر٢٠٠٨ بمقر إقامة السفير الأمريكي بلندن.

٤- محمد فتحي

كاتب مصري شاب من مواليد القاهرة بدأ محمد فتحي الكتابة كمراسل صحفي ناشئ بمجلة سمير عام ١٩٩٢ وهناك تعلم قواعد الصحافة وأحبها على يد الأستاذ محسن الزيات وصاحبة التجربة الاستثنائية نتيلة راشد (ماما لبنى). والتحق بكلية الآداب قسم الإعلام جامعة حلوان ليتخرج فيها بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف ويعين كمعيد بقسم الإعلام بآداب حلوان.

بدأ فتحي الكتابة الاحترافية من خلال سلسلة مجانين ثم انقطع فترة ليعود مرة أخرى بروايته القصيرة ''شيء من الحب'' وتوالت إصداراته ليصدر كتابه ''ليك شوق ف حاجة'' ثم مجموعته القصصية ''بجوار رجل أعرفه'' والتي حصلت على جائزة ساويرس الأولى بإجماع لجنة التحكيم كأفضل مجموعة قصصية لعام ٢٠٠٩ أصدر فتحي كذلك كتابه ''مصر من البلكونة'' الذي طبعت منه حتى لحظة كتابة هذه السطور ست طبعات وأصدر في مطلع ٢٠١٠ كتابه ''دمار يا مصر'' والذي نفذت طبعته الأولى بعد شهر من صدوره.

يكتب فتحي بجريدة الدستور ويعمل الآن مدرساً مساعداً بقسم الإعلام جامعة حلوان حيث يقوم بتدريس فنون التحرير الصحفي بشقها العملي، وله من الإصدارات كتابه ''نامت عليك حيطة'' بالاشتراك مع الأديبة نهى محمود، و''دعاة يحكمون عقول

المصريين''، إلى جانب أكثر من ١٥ عملاً للأطفال عن دار فيوجن للنشر، ويعد فتحي من أبرز كتاب مجلة باسم السعودية للأطفال من خلال شخصيته الشهيرة توتة التي رشح عنها لجائزة الصحافة العربية لصحافة الأطفال مرتين متتاليتين عن طريق الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.

كتب فتحي السيت كوم وأعد عدداً من البرامج التليفزيونية آخرها هو خدعوك فقالوا على قناة اقرأ الفضائية من تقديم الداعية مصطفى حسني، وعصير الكتب على قناة دريم من تقديم بلال فضل، وشرف فتحي بالعمل كمستشار إعلامي لحملة حماية لبدء علاج مدمني العالم العربي والتي أطلقها الداعية عمرو خالد بالتعاون مع شرطة دبي ومكتب الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة.

٥- أيمن محمد حسن

(ولد في ١٨ نوفمبر عام ١٩٦٧) جندي مصري قام في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٠م بتنفيذ عملية عسكرية علي الحدود المصرية الفلسطينية المحتلة ردا علي إساءة جنود إسرائليين وإهانة العلم المصري وقيام الإسرائليين بمذبحة المسجد الأقصى الأولى، قتل ٢١ ضابطاً وجنديا إسرائيليا وجرح ٢٠ اخرين بعد مهاجمة سيارة جيب وأوتوبيسين إسرائيليين وأصيب في رأسه ثم عاد إلى الحدود المصرية ليسلم نفسه، حُكم عليه في ٦ أبريل ١٩٩١م بالسجن لمدة ١٢ عاما.

وبدأت محاكمته منتصف ديسمبر ١٩٩٠ وتم النطق بالحكم في ٦ ابريل ١٩٩١ بالسجن المؤبد لمدة ١٢ عاماً بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار لـــ٢١ إسرائيليا وإصابة عشرين آخرين وإتلاف ست سيارات.

خرج أيمن من السجن في عام ٢٠٠٠ بعد قضاء عشر سنوات فيه وبعد خروجه تزوج من ابنة خاله وأنجب طفلين.

التعريف بالشخصيات نقل من موقع ويكيبيديا.

عن الكاتب

محمد سامي البوهي

صحفي وروائي مصري من مواليد ١٩٧٧

الإصدارات:

-لوزات الجليد /مجموعة قصصية /مركز الحضارة العربية القاهرة ٢٠٠٦

- رائحة الخشب / مجموعة قصصية/ دار شمس للنشر القاهرة ٢٠٠٨

- أوطان بلون الفراولة/ رواية/ دار العين للنشر القاهرة ٢٠١٠

البريد الإلكتروني:

blkbohy@hotmail.com